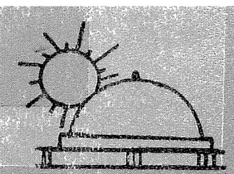
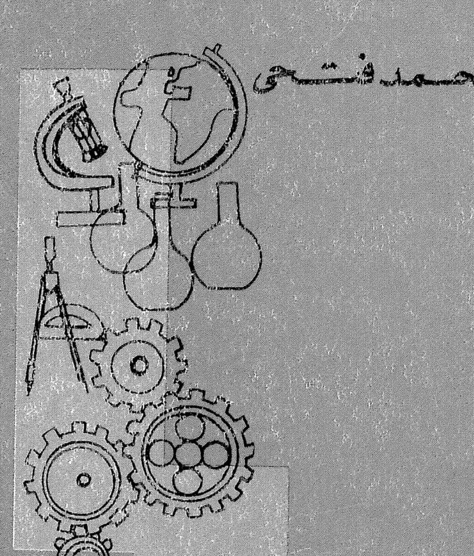


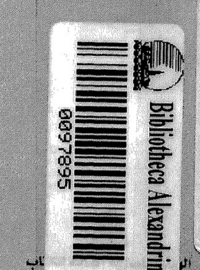
سلسلة العلم والحياة ١٢٠

سر النهوض والتقدم

(لماذا لا يبدع المصريون ؟)

محمد فتحي





سلسلة

العلم و الحياة

١٢٠

سِرّ النهوض والتقدم

(لماذا لا يبدع المصريون؟)

محمد فتحي

١- التنمية بسواعدهم

الاشراف الفنى :

محمـود الجـزار

مقدمـــة

فيما يشبه الوصية أو التحـذير كان بين آخر ما خطـه يراع الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين عجالة بعنوان « فزورة التاريخ » (١) •• وكانت فزورة بهاء : « منذ صـارت القراءة أحد همومى ، وأنا أسأل هـذا السؤال : ما الذى يجعل شعبا ما ينهض ويتقـدم ؟ وما الذى يجعل شـعبا ما يكون متقدما وناهضا يضمحل ويتقهقر ؟ •• » •

وكان بين ما جاء فى عجالة بهاء الدين : « من حق الكاتب أن يطرق باله سؤال ما ، ويحار معه ولا يجد له ردا وتفسيرا •• فيطرح هذا السؤال على القارىء حتى اذا كان لا يفعل الا أنه مشاركه فى حيرته فهذا أمر مفيد ، يشحذ الأفكار ، وقد يخف لنجدته كاتب أو مفكر آخر •• » •

هكذا لم يكن الأمر مجرد سؤال من الكاتب الكبير ••

---

(١) مجلة الهلال ــ يناير ١٩٨٩ •

بل حثـا بالغ الذكاء على الحوار حول السـؤال ـ الأهم فى وجودنا ـ عن سر النهوض والتقدم ، الذى آثر أن يسجله ، فيما يشبه الوصية ، لأجيالنا الطالعة .

كنت مهموما بسؤال الأستاذ بهاء ، وكنت قد قضيت سنوات طوال فى البحث عن اجابة له ، فحاولت أن أقدم هـذه الاجابة فى عدد من المنابر الفكرية (٢) . وكانت الحصيلة هذا الكتاب .

وكان حل فزورة بهاء أو « سر النهوض والتقدم » اذا لخصته فى كلمتين : « الابداع الجماعى » ، واذا لخصته فى جملة : « تقدير المعرفة وتناميها وتوظيفها فى حث العمل الجماعى المبدع فى جو من الثقـة » .. أما اذا كنت مشغولا بكيف ؟ ولمـاذا ؟ و .. فصفحات الكتاب بين يديك .

تبقى مجموعة من الاشارات :

ـ الاشارة الأولى : الى أن الكتاب طرح منظومى لعناصر اشاعة المعرفة وحث الابداع ، أى حرث الأرض حتى يضبح بالامكان أن تستقبل النبت الجديد . وتقيم « عوده » بحيث يكون قادرا على النهوض والازدهار .

ـ الاشارة الثانية : أن أحدا لايمكن أن يشك فى ضرورة

---

(٢) اعتبارا من فبراير ١٩٨٩ فى مجلات الهلال وابداع والمصور و ...

النهوض والتقدم ، لكن هناك ظروفا اضافية تجعل هذه القضية قضية حياة أو موت بالنسبة للعربى .

فالمتـابع لمـا يجـرى فى عالمنـا : عـالم الكمبيـوتر والملتى ميديا وشبكة انترنت وغيرها من وسائل العولمة ، خلال السنوات الأخيرة ، والوتائر التى يجرى بها ، يدرك مدى العزلة التى تتهدد العربى فيمـا يخص النهل من التراث الانسـانى والتواصل مع الابداع العالمى فى كافة المجالات ، حتى أنه بات على وشك الغيش فى حصار يقطع صلته بمعارف العالم حوله . وهذه مشكلة كلية الأبعاد ، للتلازم بين الثروة الحقيقية للمجتمع والثروة البشرية ، ولأن مستوى الطاقات البشرية (أساس فرص العمل والانتاج والتصدير و ...) هى أهم ما يحدد مستقبل الأمـة .

ـ الاشارة الثالثة : أنه من حسـن الحظ أن هنـاك طرقا لتجاوز الحصار المعرفى الحضارى الذى يهدد مواطننا ، وحل مشكلة من الدرجة الأولى من مشاكل الأمن القومى فيما يخص مستقبل الأمة ومصيرها ، دون أعباء تخرج عن قدراتنا . شريطة أن يدرك المجتمع امكاناته وطبيعة العـالم الذى يعيش فيه ، والوسائل التى لايمكن الاستغناء عنها فى هذا الصدد .

ـ الاشارة الرابعة : أن القضية فى هذه الدراسة ليستفقط

كيف نساعد على صنع الانسان العصرى المبدع ، بل كيف نساعد على خلق العقل الناضج المتفتح القادر على رؤية ما لا يعتقد فيه ، وعلى الحوار والتطور واستيعاب ما يحيط به من حقائق ، وذلك بدلا مما يرسخ من صنع المتعصبين ذوى الأفق المحدود الذين يخاصمون روح التغير والابداع •

ان على أى عقل حى استيعاب المستجدات الجارية فى ظروف العصر والا كان عقلا مشلولا يتحرك بمجرد القصور الذاتى • وعلينا أن نستيقظ من هجعة الخمول وتتجاوز التثاؤب وتزجية الوقت المهدر فى سجالات الخيار المحاصرة بماضينا وماضى الآخرين • ولأن ثمن العنة الابداعية هو وجود الانسان العربى ذاته •

سر النهوض والتقـدم

تحت عنوان « فزورة التاريخ » طرح الأستاذ أحمد بهاء الدين سؤالا محوريا فيما يخص المستقبل :

ما الذى يجعل شعبا ما ينهض ويتقدم ؟ وما الذى يجعل شعبا ما ، يكون ناهضا ومتقدما ، يضمحل ويتقهقر ؟

ورغم أن هذا السؤال هو أعقد أسئلة « فلسفة التاريخ » كما يرى الأستاذ بهاء .. فان الحاجه وأهميتـه يبرران عدم اغفال طريق من الطرق ، التى يمكن أن تؤدى حتى الى طرف من اجابته .. وربما كانت قراءة تجارب الآخرين ـ بالذات ان كانت قد حظيت بدرس وافر ـ أحد أيسر السبل فى محاولة الاجابـة .

واستأذن فى اختيار تجربة الانطلاق اليابانية كدليل فى هذا الصدد . وان كان الأقرب الى واقع الحال ، حتى فى بيوتنا ألا يسأل القارىء : ولماذا اليابان ؟ فالواجب أن يكون المرء محددا فى توجهه الى أقصى حد .

***

الثابت أن اليابان لم تكن فى بدايـة القرن الا دولة من الفلاحين والصيادين ، وأنها بدأت مسيرتها نحو التقدم من واقع العزلة والتخلف ، وأنها قد تحولت الى ما يشبه الانقاض ، عشية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .

والثابت أيضا أن اليابان صارت اليوم صاحبة ثانى أقوى اقتصـاد فى العالم الرأسمالى ، بل انها توشـك على تجـاوز الولايات المتحدة ، من حيث الناتج القومى بالنسبة للفرد .

لقد كان الانتاج الصناعى لليابان عام ١٩٥٢ (عام انتهاء الاحتلال) يناهز ثلث انتاج بريطانيا أو فرنسا ، ولم يحل عام ١٩٧٠ حتى كان قد تجـاوز مجموع انتاج البلدين معا . ذلك بينمـا قفزت انتاجية العـامل اليابانى الى خمسة أضعاف مثيله الانجليزى ووصل أجره ــ اليابانى ــ الى ضعف أجر العامل الانجليزى .

ومما يلفت النظر أن اليابانيين حققوا قفزة التحديث بأقل قدر من الصـدام مع تقاليدهم .. أو على أقل تقدير دون أن يصل الأمر الى حد وقوف تراثهم حجر عثرة فى سبيل التقدم .

كما انهم حققوا ما حققوه وثلاثة أرباعهم يعيشون على شريط ضيق خانق ، يمتد بين طوكيو وهيروشيما ، على المحيط الهـادى .

هذا كما أن الانجاز الياباني الفذ قد تحقق في بلد لا يعيش ظروفا طبيعية سهلة ، اذ أعتادت الزلازل والأعاصير على ضرب أراضيه من كل جانب ، ناهيك عن افتقاره للمواد ذات القيمة الاستراتيجية ، حتى امتد اعتماده على الخارج الى الخامات الأساسية (يستورد حوالى ٩٠٪ من خاماته) ناهيك عن قوت يومه .

وقبل الانتقال من هذه النقطة ينبغي التأكيد على أن التجربة اليابانية ليست بالمعجزة ـ كما جرت العادة في وصفها ـ لأنها من صنع بشر ، ولأن شروطها تتكرر في عدد من التجارب الأخرى (والمعجزات لا تتكرر) .. هذا كما أن التجربة اليابانية عامرة بالمثالب والنواقص ، كغيرها من التجارب الانسانية .. ومثالبها تتراوح بين مظاهر مثل معاناة النظام الاقتصادى من انفصام أو ثنائية تتمثل في عمل ٣٠٪ من اليابانيين في المجالات المعتمدة على التقنيات المتقدمة ، صاحبة الانتاجية البالغة الارتفاع ، بينما يعمل ٧٠٪ منهم في مجالات عمل صغيرة ، أقل كفاءة بما لا يقاس .. ومثل موجة الافلاس المتزايدة التى يروح ضحيتها ما يقرب من ٢٠ ألف خلية انتاجية سنويا .. وبين مظاهر من لون آخر مثل اتهام شبه ثابت لواحد من أهم رؤساء وزرائها بالرشوة (قضية حصول تاناكا على مليونى دولار من شركة لوكهيد للتوصية بشراء طائراتها) ومثل زحام المتناقضات

والخزعبلات فى الشارع اليابانى ، وبقاء معدلات الانتحـار على ارتفاعها ، وطبيعة الشرائح التى تقدم عليه .

ان هذه العوامل مجتمعة تجعل الانجاز اليابانى ، وبعيدا عن الطوباوية ، انجازا فذا بكل المقاييس ، الأمر الذى يزيد من قيمة الشروط التى تقف وراءه . فما هى أسرار هـذا الانجاز يا ترى ؟

أسرار الانجاز اليابانى :

قد يكون صحيحا أن المعونات الأمريكية التى انهالت على اليابان خوفا من سقوطها فى براثن الشيوعية قد لعبت دورا فى نهضتها ، لكن الأكيد أنها لم تكن صاحبـة الدور الحاسـم أو الأساسى . فكم من دول حصلت على مثل ما حصلت عليـه اليابان ، بل وعلى ما هو أكثر منه ، دون أن تصنع ما صنعت اليابان .

وقد يكون صحيحا أن غياب الأعباء العسكرية قد لعب دورا فى نهضة اليابان ، لكنه لم يكن أيضا بالدور الحاسم اذ ان كثيرا من الدول تعفيها ظروفها من الانفاق العسكرى الضخم .

ويرجع الكثيرون الانطلاقة اليابانية الى ما يسمونه بعبقرية التقليـد أو الحـذق فى سرقـة منجزات الغرب التكنولوجيـة وتقليدها .

ويرجع آخرون (مثل أدوين ريشـوير سـفير الولايات المتحدة فى اليابان سابقا) الأمر الى رغبة اليابانى الجامحة فى التعليم ، التى لا يتمتع بها أى انسان آخر (!!) .

ويرى آخرون (مثل عالم الاجتماع الأمريكى عزرا فوجل فى كتاب : اليابان رقم واحد دروس لأمريكا) يرون أنه اذا كان للدارس تفسير النجـاح اليابانى بعامل واحد فلابد أن يكون هذا العامل هو « السعى الجماعى الموجه لجمع المعرفة » .

ويركز آخرون (مثل المفكر اليابانى أهيرو كوساكى فى : سقوط القنـاع اليابانى) على علاقـة اليابانيين بالعمـل ، تلك العـلاقة التى دفعتـه الى التأكيـد على أن الحيـاة خارج العمل كما يفهمها الغرب ليست موجودة لدى اليابانى ، فليس عنده خط فاصـل يحدد أين ينتهى العمـل وأين تبدأ الحياة » .

ويرى البعض (مثل عالم الاجتمـاع الأمريكى جـورج لودج) أن اليابانيين استطاعوا المحافظة على القيم الجماعيـة « اذ تمكنوا من المحافظة على مفهوم تضـامن الجماعة حتى فى المدن الصناعية الجديدة ، بفضل وعيهم ــ مسبقا ــ بأهميـة هذا التضامن وبانه العنصر الذى يمكن أن يصـون مصالحهم الفردية على المدى القريب والبعيد معا » .

اذا كان كل من العلماء السابقين ، وكلهم دارس جاد للتجربة اليابانية ، قد ركز على هذه السمة أو تلك من سمات المجتمع اليابانى ، فان النظر الى هذه السمات فى تكاملها ، وفى تفاعلاتها الدينامية ؛ يمكن أن يضع يدنا على السبب الحقيقى للانجاز اليابانى وهو فى رأينا : وجود استراتيجية متكاملة للاستفادة ، الى أقصى حد ممكن ، من طاقات الانسان اليابانى ؛ فى أعمار مجتمعه ، من خلال العمل الجماعى المبدع . واتاحة ما يتطلبه ذلك من معارف ، مع استيعاب كل ما يؤدى اليه من تطور .. وذلك كله فى اطار حلم قومى ناهض ، ومنظومة مناسبة من القيم .

وفهم معنى العمل المبدع ، بعيدا عن التصورات الرومانسية والنرجسية ، على انه «.اضافة الى أفكار الآخرين وتطويرها » يضعنا بخطوة واحدة على الطريق الذى يبدأ برفض ما يراه البعض من أن التجربة اليابانية نقلا أو تقليدا أو سرقة ذكية .

توظيف المعرفة :

ولأن هذه التجربة عمل يستند الى استراتيجية متكاملة للاستفادة من الجهد الابداعى للانسان اليابانى ، كان لابد لها من مراحل متداخلة أولها تحصيل ما هو موجود من معارف بشرية ، وهذا ما جعل المعارف والمعلومات تشكل محورا

آساسيا من محاور التجربة . فمنذ فترة حكم الامبراطور ميجى (المستنير) حول عـام ١٨٦٨ قرر قادة اليابان ، من القوميين الذين أرادوا تجنيب الأمة التصدع أمام تيار المؤثرات الغربية ، قرروا فتح الباب واسـعا أمام الاسـتفادة من دروس البيض ووسائلهم ، بل واقتناص أسلحتهم ذاتها .

. واذا كان الثابت أن كمية المعارف والمعلومات التى سجلت باليابانية فى العصر الحديث تزيد كثيرا عما تم تسجيله بأى لغة أخرى فان معظم ما يدرج تحت هذا البند يحتوى أساسا على مناقشـات تحليليـة للمعلومات ، وعلى أفـكار تستوعب تلك المعلومات وتستند اليها .. ووفق منطق العمل الابداعى الذى لابد أن يعتمد على آخر المعارف ، شاعت حركة واسعة النطـاق تسعى الى تعويد كل مواطن على أن يبدى رأيه فى المعلومات المتصلة بمجـال تخصصه ، والى أن يضيف اليها بعد استيعابها (فوجل) .

واذا كانت أساليب جمع المعلومات وتحصـيل المعـارف ليست موضوعنا هنا ، فانه من الضرورى التأكيد على أن عملية اكتساب المعرفة فى اليابان عملية شاملة ومستمرة ، تبدأ بالتعليم الالزامى فى المدارس التى تشرف عليهـا الدولة ، ويجرى فى تكافؤ تام للفرص يسقط الحواجز الاجتماعية ويتيح امكانيـة

التقدم أمام الجميع ، مما يؤدى الى الاستفادة من أفضل العناصر البشرية دون تمييز •• ويستمر هـذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة ، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الأخرى دون حواجز اجتماعية •

والمهم أن تحصـيل المعـارف لا يقف عند نهايـة سـلم المؤسسات التعليمية ، اذ أن هناك أشكالا للتعليم ، فيما بعد المعاهد العليا ــ فى المؤسسات الانتاجية مثلا ــ لها علاقـة وثيقة بجمع المعرفة والخبرة بصـورة جماعية ، ثم توظيفها لخدمة الانتاج والتطوير الشامل للمجتمع •

والى جوار تأثير ذلك كله فى تربية استعدادات اليابانى على تقبل التغيير وتبنى نقاط قوة الآخرين فانه يسـاعد على امتصاص النسيج الاجتماعى اليابانى عناصر جديدة دوما ، جعلت اليابانيين أكثر قـدرة على التـواؤم مع العصر ، ومسـايرة « لغاته » وهضمها وتمثلها ، فى سلوك عملى يتكيف مع الواقع اليابانى ويطوره باضافات ابداعية •

وهـكذا فان اهتمـام اليابانيين بالمعرفـة ليس اهتماما عشوائيا ، وانما هو اهتمام تابع من الحاجة الاجتماعية ، ويرتبط بالعمل الانمائى ، وبمجموع المعنيين لا بأفرادهم •

واعتمادا على معرفة من هذا النوع يجيء العمل الذى لا يعرف الكلل ، والذى لا ينفصل فى تصور اليابانى عن الحياة (كواساكى) ، وبنظام وانضباط مدهشين ، ندعمه بنية عمل وانتاج متماسكة ، تتميز بروح اجتماعية تشيع علاقات التماسك والتكافل بين المشاركين فيها ، وذلك الى جوار الولاء والانتماء لمجتمعهم الصغير ومجتمعهم الكبير على حد سواء (فوجل) .

وذلك كله بالاضافة الى أن اليابانى يعيش ببساطة متقشفة قل نظيرها فى الغرب (جيلان) .

غير أن الذى يدفع بهذه العناصر جميعا الى أفق ابداعى ، فى تطور مستمر ، هو كونها تجرى فى اطار جماعى عام قابل للاثراء ، جرى تحديده عند الانطلاق وان ظل يواكب كل الأنشطة ، ويقوم على ضبط خطوها مستعينا بمنظومة من القيم ، تعمل على حث الحلم الجماعى باستمرار .

وهنا ينبغى الاشارة الى مجموعة من المحاذير التى يجب الانتباه اليها عند الحديث عن التجربة اليابانية .. اذ يجب الحذر من مقولات مثل كون اليابانيين يشكلون « شعبا مجدا » يتمتع بـ « ارادة عنيدة » نحو التقدم ، ويتملكه « حب لكل ما هو جديد » (جيلان) . ذلك ان الله لم يحاب شعبا من

الشعوب ، ويضمن مورثاته البيولوجية (الجينات) ، ما لم يضمن مورثات الشعوب الأخرى •• ولسنا فى حاجة الى الذهاب بعيدا وقصص النجـاح الذى تحرزه الأدمغة العربية المهاجرة ــ رغم مصـاعب ومثالب الغربة ــ تحيطنا من كل جانب •• فلماذا يا ترى يتعذر على هذه الأدمغـة النجـاح ما بقيت فى المحيط العربى •• وما علاقة ذلك بما يهبه الله لعباده •

هذا كما أن الارادة العنيدة ليست صفة ميتافيزيقية بل هى نتاج اكتمال الوعى بالنفس وبالتحديات ، بكل ما ينطوى عليه ذلك من مسئولية •• وقد حفز هذه الارادة فى الظروف اليابانية شعور فائق بعدم الأمان ، وصـل الى حد الخوف من الموت جوعا ، ما لم يعتمد اليابانى على نفسه •

استراتيجية العمل الجماعى المبدع :

ولعله من المناسب هنا معاودة التأكيد على تجاوز أهميـة الشروط السابقة حدود التجربة اليابانية • وعلى كونهـا تظل صحيحة بالنسبة للتجارب الأخرى ، التى تواصـل ازدهارها ما التزمت جهود الانسان فيها بهذا السعى الجمـاعى الموجه للعمل المبدع • لكنها تبدأ رحلة تدهورها ، أو تدخل دروبا جانبية معوقة ، ما أن تضـل طريقهـا الى هـذا السـعى ،

أو تقصقص منظومة القيمـة السـائدة ريش الابداع فيتحول المجتمع الى تدمير قوة الدفع فيه .

وهكذا يمكن تلخيص حاجتنا المستقبلية ، وهى ما قصـد اليه ـ بالمناسبة ـ الأستاذ أحمد بهاء الدين ، فى الوصـول الى استراتيجية واضحة للاستفادة من جهود الانسان العربى وفق الشروط التى اتضحت على مثال التجربة اليابانية . ولابد أن تتسم بنود هذه الاستراتيجية بصفة التلاحم ـ بدلا من صفات الانفصام الحالية ـ بين مختلف عناصر الخطة :

التلاحم بين تعليم الانسـان وعمله وبين عمله ووظيفته المتمثلة فى أعمـار الكون ، وبين وظيفتـه وابداعه وأحـلامه على أن تحث منظومة القيم ـ والقيمة ـ السائدة هذه العلاقات لا أن تنال منها .

ضرورة الاطار الديموقراطى :

يبقى التأكيد على عامل لايمكن بدونه الخطو خطوة واحدة الى الأمام وهو الاطار الديمقراطى لذلك كله . ذلك أن شيئا ذا بال لايمكن أن يتحقق (فى أى تجربة) دون مشاركة أصحاب الشأن فيه ، على أوسـع نطاق ، وليس من الممكن الحـديث عن اخراج الناس من حالة « الانامالية » (أنا مالى) التى تخنق انسانيتهم دون السعى الدؤوب الى مشاركتهم الديمقراطية .

غير أنه ينبغى لنا ونحن نتحدث عن « الاطار الديمقراطى » ان نتحلى بالواقعية بعيدا عن التهويمات الرومانسية التى لا صلة لها بواقع الحياة وحتى نوضح هذه النقطة لا بأس من مثال .

لعل القارىء يذكر « بوبى ساندز » الذى كان عضـوا فى الجيش الجمهورى الايرلندى ، وحكم عليه بالسجن ١٤ سنة، لأن البوليس عثر فى بيته وسط الظروف الايرلندية العاصفة فى حينه ، على مسدس بدون ترخيص .

راح الرجل ــ فيما بعد ــ يجاهد من أجل هوية السجين السياسى لا المجرم المجرد ، وكانت الحكومة البريطانيـة ترفض ذلك رفضا قطعيا ، وترد على الهيئات العالمية التى اهتمت بالأمر (منظمة الأمم المتحدة ، ومنظمة حقوق الانسـان ، وهيئـات الجماعة الأوربية ..) بأن ساندز ورفاقه ليسوا سوى مجرمين نكرات .

آنئذ أقدم بوبى ساندز على خطوة فاضحة اذ تقدم من سجنه مرشحا فى الانتخابات البرلمـانية ، وطالب جمهور الدائرة التى رشح نفسه فيها تأييده ، لا من أجـل أفكاره السياسـية وانما من أجل المطلب الخاص بهوية السجين السياسى .

وجرى الأمر كله وسـط موقف غاية فى الحـرج . كان بوبى ساندز قد أعلن هو ورفاقه فى السجن اضرابا عن الطعـام

(حتى الموت) من أجل الحصول على هوية السجين السياسى وكان واضحا انه يسعى الى استعارة الهوية البرلمانية بعض الوقت ، فاذا نجح عن هذا الطريق فى احراج الحكومة ومنحته هوية السجين السياسى تنازل عن المقعد البرلمانى .. وان ركبت الحكومة رأسها وأصرت على رفضها سيكون بوبى ساندز قد قدم علامة استفهام هائلة حول فحوى الديمقراطية ، وأهمية صندوق الاقتراع ، بل وطبيعة الشرعية التى تستند اليها الحكومة ذاتها .

وقادت الحكومة البريطانية حملة شرسة ومكثفة ضد انتخاب ساندز ، مخوفة الناس من أن انتخابه يعنى اعطاء تفويض برلمانى لقاتل . لكن الناس اختاروه فى النهاية ، وفاز بالمقعد البرلمانى للدائرة ، ومع ذلك استمرت الحكومة فى رفض مطلبه ورفض المساعى العالمية بصدده ، وأصر بوبى ساندز على « أن الموت جوعا أفضل من العبودية » وكانت النهاية المؤسية .

ولا يظنن أحد أن الطراز الكورى الذى اختاره الأستاذ أحمد بهاء الدين ليفضح من خلاله دراويش الابهار السطحيين (سواء فى حديثهم عن الديمقراطية أو الألعاب الأوليمبية) لا يظنن أحد أن الطراز الكورى هو ما أعنى من اطار ديمقراطى، ذلك أن ما يهمنى التأكيد عليه هو أن قيما كالديمقراطية ليست مجرد صياغات لفظية ، وانما واقع اجتماعى حى تسرى عليه

قوانين التغير والتحور والنمو والانتكاس ، وعلى من يريد أن يتقدم ان يكدح ويبدع مفاهيمه ، أو الاطار المناسب لما يروقه من مفاهيم • ذلك بالاضافة الى التأكيد على العلاقة الجدلية بين مستوى المشاركة فى النهوض من خلال العمل الجماعى المبدع وبين اشتداد عود الديمقراطية •

بقيت ملاحظة أخيرة اذ اعتقد أن المراقب الواعى يتفق معى ابتداء على زيف الصور الطوباوية « الصافية الألوان » •• الأمر الذى أكدنا عليه منذ البداية (فى تعداد المثالب التى تعتور التجربة اليابانية) • ولا يدفعنا الى انهاء المقال بهذه الملاحظة الا تأكيد امكانية نهوضنا الاجتماعى نحن بالذات (رغم كل المثالب) فهذا هو بيت القصيد فى كل من الفزورة التى طرحها علينا الأستاذ أحمد بهاء الدين ، وهذه الكلمات التى أحاول الوقوف بها الى جانب دعوته •

وان صح ما وصلت اليه فى دراستى للتجربة اليابانية فلا بأس فى اضافة فزورة جديدة حول ذلك التصور العبقرى الذى يمكن أن يبدع استراتيجية تحول شعبنا الى العمل الجماعى المبدع ، مع منظومة القيم المناسبة التى تضمن بقاء الغالبية العظمى على هذه الحال •

التعليم هو قضية وجودنا

ونقص موارد تطويره أكذوبة

المتابع لما يجرى فى العالم خلال السنوات الأخيرة ، يدرك مدى العزلة التى تتهدد العربى فى مجال الوسائل المعرفية والتعليمية (الكمبيوتر والملتى ميديا وشبكة انترنت والسوبرهاى واى و ...) ، حتى أنه بات على وشك العيش فى حصار يقطع صلته بمعارف العالم حوله ، وهذه مشكلة كاملة الأبعاد للتلازم بين الثروة الحقيقية للمجتمع والثروة البشرية ، ولأن مستوى الطاقات البشرية (أساس فرص العمل والانتاج والتصدير و ...) هى أهم ما يحدد مستقبل الأمة ، بقادريها وغير قادريها ، وهكذا فان المسألة فيما يخص المعرفة والتعليم ليست تكافؤ الفرص والعدل الاجتماعى فقط ، وانما مستقبل المجتمع بوجه عام ؛ واتاحة أقوى المحركات للنهوض به .

أن تلميذ « نظـام التعليم الذى نختـاره اليوم » سـيبدأ ممارسة عمله بعد حوالى ٢٠ سنة (٢٠١٥) ، وسيواصل العمل حتى سن المعاش (حتى عام ٢٠٥٥ وربمـا أكثر) • أى أننا لن ندخل القرن القادم دخولا حقيقيا واعيا الا اذا توفر لنا نظـام تعليمى يتناسب مع هـذا القرن • فهل يمكن أن تتوفر لنا فرصة ديمقراطية لتحديث التعليم ؟

من حسن الحظ أن هناك طريق لتجاوز الحصـار المعرفى الحضارى الذى يهدد مواطننا ، وحل مشكلة من الدرجة الأولى من مشاكل الأمن القومى فيما يخص مستقبل الأمة ومصيرنا ، دون أعباء تذكر •• ان اتاحة فرصـة التعليم العصرى للجميع متيسرة ، فى حدود الامكانات المتوفرة ، اذا تخلينا عن التفكير التقليدى وتحلينا ببعض السلوك الابداعى •

***

فى واحد من أرقى معاهد الفيزياء فى عالمنا جلست لجنـة قبول الدارسين الجدد تفحص أوراق المتقدمين للالتحاق قبل المقـابلة الشخصـية لكل منهم ، وتختـار وفـق الأوراق من ترشحهم للقبول ومن ترشحهم للرفض ، وضـمت الى قائمـة المرفوضين كل الحاصلين على الدرجات النهائية فى الفيزياء ،

رغم أن المهمة الأولى للمعهد هى تخريج الكوادر التى ستطور علم الفيزياء !

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب فالمعروف أن عددا من معاهد الفيزياء الحديثة توصى طلابها أول يوم فى الدراسة بأن ينسوا الفيزياء التى درسوها فى المدرسة ، بل وهناك معاهد تفضل أن تريح نفسها من البداية وترفض قبول الطلاب الحاصلين على الدرجات النهائية فى الفيزياء التقليدية ، وحجة القائمين عليها فى ذلك أنه من العسير على هؤلاء استيعاب عالم الفيزياء الحديثة استيعابا ابداعيا .

وهذا ليس تهويما أو ادعاء ، فقد وقف بوانكاريه على باب النظرية النسبية دون أن يجرؤ على الولوج منه لأنه لا يتفق مع المسلمات الفيزيائية التى كانت شائعة فى عصره ، والتى كان قد استوعبها جيدا . بينما كان عدم تمكن هذا المسلمات من آنشتين بين أسباب اكتشافه ، ولم تكن هذه مشكلة بوانكاريه وحده ، فقد رفضت جهات علمية محترمة جدا النسبية فى حينه ، ولم يكن ذلك قدر النسبية وحدها ، اذ أنه تكرر مع كل اكتشاف عظيم من الوراثة وحتى الخروج الى الفضاء .

ولعل القارىء يسأل لكن ما علاقة ذلك بالتعليم فى مصر ؟

ان نموذج الحاصل على الدرجة النهائية ، المرفوض لليأس

من قدرته على الابداع ، هو النموذج الذى يحتفى به نظـام التعليم المصرى ويتبناه من مراحـله الأولى وحتى مراحـله النهائية . ولعل العودة الى عمل لجنة القبول فى معهد الفيزياء وما تدققه من أمور حتى تؤكد رفض أصحاب الدرجات النهائية أو تغير وجهة نظرها المبدئية وتقبلهم ، لعل هذه العودة تكشف لنا بعض عيوب التعليم المصرى .

أول ما تدققه لجنـة القبول هو نظرة الطالب الى الفيزياء ـ والعلم بصفة عامة ـ هل هى معـارف مقدسـة منتهيـة ، أو كيان حى فى تطور مستمر ، وفى كل أنظمة التعليم الراقيـة لابد أن يصـل للتلميذ بشكل من الأشكال حس التطور المستمر فى المعرفة ، والثورات الكبرى التى حدثت فى اطار كل علم ، بل والمخاض الصعب الذى صاحب هذه الثورات والمعارضـة الشرسة لها ، التى بدت طويلا وكأنها على حق و ...

التعـليم والحـب :

والعامل الثانى الذى تدققه اللجنة هو علاقة الطالب بواقع الفيزياء ، وليس بكتبها ، ذلك أنه ليس هنـاك قيمة ابداعيـة لتعليم لا يدخل فى جدل مع الواقع ، ومع العواطف النابعة من العلاقة به ، وليس هنـاك مثال لايضاح ذلك أقرب الى وجدان المصريين من السبيل الذى أتبع فى هـدم الساتر الترابى على

ضفة قناة السويس فى حرب ١٩٧٣ ، اذ استفاد أحد الجنود المصريين من تجربة تعلمها قبل ذلك خلال عملية تجريف الصخور بالمياه (ذات الضغط العالى) أثناء بناء السد العالى ، ومن الهم والحب والخبرة تولدت فكرة الحل الابداعى الذى أصاب الكثيرين بالذهول .

فتدقيق العلاقة بواقع الفيزياء ينطوى على إختبار مدى حب الفيزياء ، بل والهوس بها . فلا يمكن أن يكون هناك ابداع دون حب ، فالمصرى الذى أبدع طريقة ازالة السد الترابى كان مهموما بهذا المأزق أى أنه كان يحب حبا حقيقيا ملك عليه نفسه .

ولا بأس من مثال آخر يكشف سحر الحب والهم الذى يخرج من العادى بالمذهل : ففى فجر اختراع الطيران كان هناك مأخذ يصيب هذا الاختراع الحضارى الفذ فى مقتل ، هو أن الطائرة سرعان ما تهوى وتتحطم بمن فيها عندما يصيب أهون خلل ، أيا من أجهزتها . ويومها كان واحد من الرواد المبتكرين لأجهزة الطيران يمضى مهموما بهذه المشكلة ، فى طريقه لمشاهدة أحد استعراضات الاقلاع والتحليق والهبوط فيما يشبه ملعب كرة القدم (كان الطيران مازال مغامرة واستعراض وفرجة) ومع كل القلق الذى يحسه على الطيارين والهم الذى ينوء به ،

طالعه وجه متفرج بعين واحدة (أعور) ، ولتو برقت فى ذهنه « المحب المهموم » الفكرة « العبقرية » : لماذا لاتكون كل الأجهزة الحساسة فى الطائرة مزدوجة ، كما هى الحال بالنسبة لعينى الانسان ، بحيث يدخل الجهاز البديل فى العمل حال أن يصاب الجهاز الأساسى بالعطب • وكانت هذه هى الفكرة التى فتحت الباب لتحول الطيران من مغامرة غير محمودة العواقب ، الى ثورة حضارية حقيقية ، اذ جعلت منه عملية تتمتع بضمانات أمان لا تقل عما يتوفر لغيره من وسائل النقل •

قطار التعليم الطوالى :

وليعذر لى القارىء الاسهاب فى هذه النقطة لأنها تتصل بعيب ضرب نظام التعليم المصرى فى مقتل ، هو ما يفرضه هذا النظام من اكمال المرء تعليمه فى نفس واحد ، العالى بعد الثانوى ، دون أدنى فرصة ، لاستئناف التعليم ، بعد فترة توقف لأى سبب كان ، الأمر الذى يؤدى الى تعلق الجميع باهداب « قطار التعليم الطوالى » حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية • فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق ، أين الفرصة لمن شغلته الشهادات والدروس الخصوصية ، ولم يصل للعشرين بعد ، فى أن يكتشف ميله الحقيقى ، وعلى مهل وبالتجربة ، ويصوره تجعله محبا مهموما ، و •••

وفى كل الأنظمة التعليمية المتقدمة ليست هناك قيود على عودة من قطعوا رحله تعليمهم ، بل أن فترة العمل تحسب لصالحهم عند القبول مجددا فى التعليم العالى ، لأنه ينظر لذلك فى اطار النضج العام للفرد ، وتزيد فرص هؤلاء ان كانوا قد احتكوا خلال تجربة عملهم بالمجالات التى يسعون لاكمال دراستهم فيها ، بل وتقدم لهم التسهيلات والاغراءات ، من منطلق ضرورة الارتباط بالواقع الذى سبقت الاشارة اليه .
وحتى فيما يخص قطاع من يكملون تعليمهم دون توقف تنظم المعاهد العليا المعنية لهم دورات خاصة تعرفهم على طبيعة المجال الذى يريدون اختياره ، الى جوار الفترات التى تفتح فيها أبواب هذه المعاهد أمام غير الدارسين ، للاحتكاك بالدراسة والأساتذة والدارسين ، حتى تجرى اختيارات الراغبين على أسس أكثر معرفة وواقعية .

ولعل الأخطر فى نظام التعليم المصرى أن الرغبة فى عدم فوات « قطار التعليم الطوالى » تؤدى الى سلسلة من التداعيات الشاذة ، فمن التزاحم (المشروع بالطبع) الى قضاء غالبية الطلاب لسنوات التطلع والتكوين فى حالة من العطالة المقنعة ، تحت وهم التعليم ، والى أزمة فرص العمل وطبيعة العمل ذاته ، لأنه فى هذا الاطار يكون مرحلة مبتوتة الصلة تماما بما قبلها على أحسن تقدير (ذلك أن للعطالة تأثير مدمر يكتسبه الانسان

ويظل يتحكم بتوجهاته فيما بعد . مكرسا سلسلة هدر الامكانات) .

وقبل أن أنتقل للحديث عن فرصة التعليم المصرى فى النهوض لا بأس من أن نعرج على مجموعة من المشاهد . الأول يخص بعض العوامل التى تدققها لجنة القبول للتأكد من قدرة الطالب على الابداع ، وان كنا سنمر عليها سريعا لاعتبارات المساحة ولأننا سنفصل بعضها فيما بعد .

وأول هذه العوامل التحقق من قدرة الطالب فيما يخص لغته الأصلية ، وغيرها من اللغات الأجنبية . وموقف الطالب من الأدب والشعر ـ رغم أن المطلوب هو الالتحاق بمعهد للفيزياء ـ لما لهما من قدرة على تنمية القدرات الابداعية ، فكل النظم التعليمة الراقية تحرص على أن يدرس كل الطلاب العلوم الانسانية والأدب والشعر ، ولكن ليس كل أدب وشعر ، فكثير مما هو شائع لدينا فى هذا الباب مسجون فى قطعيات وقبليات وسلفيات ؛ تقتل كل قدرة له على الحث الابداعى .

أطفال يتفوقون على مربيهم :

أما المشهد الثانى الذى نود أن نعرض له هنا فهو من الولايات المتحدة الأمريكية . فقبل ١٠ سنوات كان فى المدارس الأمريكية كمبيوتر واحد لكل ١٢٥ تلميذا ، لكن عدد الأجهزة

صار فى عام ١٩٩٤ واحدا لكل ١٢ تلميذا (غير الأجهزة الخاصة الموجودة فى البيوت) • ومع ذلك لم تنته مشكله الأمريكيين مع تعليم عصر المعلومات • ذلك أن التطور التقنى مستمر على نحو عاصف ، ولم يعد المهم أن يجلس الطفل الى جهاز كمبيوتر ، بكل المناهل المعرفية التى تتيحها برامجه وهى جد هائلة ، وانما الآفاق التى تتجاوز الامكانات الذاتية للجهاز وبرامجه • الآفاق التى يمكن أن يصله الكمبيوتر بها ، وتفتح أمامه بانوراما المعرفة الانسانية ، عن طريق الارتباط بشبكات الاتصال العالمية ، التى تنتشر هذه الأيام بسرعة ، وتعرف بـ « طرق المعلومات السريعة » •

و ٢٥٪ من التلاميذ الأمريكيين باتوا على اتصال بشبكة « انترنت » ، التى تطوى بين جوانحها كل الشبكات العالمية • ومن خلالها صار بامكانهم القيام بزيارة كاملة لمتحف اللوفر فى باريس والأرميتاج فى بطرسبرج ومحمود خليل فى القاهرة ــ وغيرهم طبعا ــ وهم جلوس فى منازلهم ، والاتصال بالمكتبات الأوربية الكبيرة ، وبنوك المعلومات اليابانية ، و « الثرثرة » مع الخبراء والنجوم و ••• ، فى كافة المجالات وفى مختلف أنحاء العالم المتمدين •

وهكذا لم يعد الشعار الشعبى فى المدارس الأمريكية هذه الأيام « دجاجة فى كل وعاء » ولا حتى « جهاز كمبيوتر على كل

مكتب » ، بل « توصيل كل جهاز كمبيوتر بالشبكة العالمية » •
وليس هناك من يستطيع التنبؤ بما سيؤدى اليه تربية أطفال على هـذا النحو ، يتفوقون بما لا يقاس على مربيهم : أهلهم ومدرسيهم و ••

وليعذرنى القارىء على هذا المشهد الأمريكى الذى لا قبل لنا به ، لأن عالم الغد هو عالم القرية الواحدة الذى سيتعامل فيه طفلنا المصرى تعاملا مباشرا مع هذا الطفل الأمريكى وأمثاله من أطفال العالم المتقدم •

ديمقراطية مناهل المعرفة :

والمشـهد الأخير يخص ديمقراطية التعليم • وهى ليست مسألة أخلاقية فكل المجتمعات الواعية لمستقبلها تعمل على اتاحة ذلك • ويكفى فى هـذا الصدد الاشارة الى أن عمليـة اكتساب وتطوير المعرفة ، التى صنعت التجربة اليابانيـة ، تبدأ بالتعليم الالزامى فى المدارس التى تشرف عليها الدولة ، وفى اطار تكافؤ تام للفرص يسقط الحواجز الاجتماعية ، ويتيح امكانات التقدم أمام الجميع ، مما يؤدى الى الاستفادة من أفضـل العنـاصر البشريـة دون تمييز ، ويستمر هـذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة ، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الأخرى دون حواجز اجتماعيـة • وذلك تطبيقـا لمـا يشيع فى العلوم

التربوية الحديثة من أن عدم تكافؤ الفرص بين كل أفراد المجتمع فى هذا الصـــدد ليس الا اعادة لانتاج الظلم الاجتماعى والتخلف الحضـــارى •

بل ان الصيحات ترتفع فى الولايات المتحدة الأمريكيـــة محذرة من مخاطر مساهمة التطورات الأخيرة فى زيادة الهوة بين الفقراء والأغنياء ، لأن الأسر القادرة هى التى تستطيع أن تؤمن لأبنائها التعامل مع الشبكات الكمبيوترية ، اما بتوفير الامكانات لهم فى المنزل ، واما بالحاقهم بمدارس غنية تيسر لهم ذلك •

المدرسة والجامعة التليفزيونية :

بعد هذه المقدمات تكون الأرضية قد مهدت لبيان كيف يمكن أن تكون اتاحة فرصـــة التعليم العصرى للجميع فى مصر متيسرة ، فى حدود الامكانات المتوفرة ، اذا تخلينا عن التفكير التقليدى وتحلينا ببعض السلوك الابداعى •

ان الحل الذى نراه لتجاوز الوضع الحالى هو الاعتمـــاد على التلفاز • صحيح أن الناس تعودوا على تحذيرات الدارسين من تأثيره الضار عليهم وعلى أولادهم • على وقتهم واستيعابهم ، بل وعلى صحتهم ، وصحـــة سـعادتهم الأسرية ، ناهيـك عن البساط الذى يسحبه من تحت أقـــدام ما يرقيهم من أنشطـــة كالقراءة و •••

لكن هذه صورة مغلوطة تماما ، لأن التلفاز يمكن أن يكون أعظم وسيلة للتأثير على جميع جوانب الحيـاه ، ولأن دوره ينمو باطراد . وقد ادركت تجمعات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى ترقية مشاهديه والأخذ بيدهم .

فأغلب المدارس والجامعات التى تتداول الحديث عنهـا حاليا « دقة قديمة » ، بينما المدارس والجامعات الحديثـة هى مدارس وجامعات تلفازية تذيع « مناهجها » على الهواء ، وتوفر على الدارسين كثيرا ، لأنها تتيح لهم أرقى المضامين والوسائل التعليمية ، بأكثر الأدوات ابهارا ، وتجسد هـذه الوسـائل والمضامين على مدار اليوم ، دون أن تكبد الطالب عناء الزحام فى المواصلات والشوارع والفصول والمدرجات ، و ...

وكلنا يعرف كيف يتبـارى النـاس على الحـاق أولادهم بالمدارس النموذجية وبفصول المتفوقين فيها على وجه التحديد ؛ والتليفزيون يمكننـا لا من جعل مصر كلها فصـلا للمتفوقين فقط ، ولا من القضـاء على الدروس الخصوصية ـ الآفة التى تكاد تغتال العمليـة التعليمية برمتهـا لأنها تجعل الكثير من المدرسين يتخلون عن واجباتهم الأصلية ـ فقط ، وانما يساعدنا على اتاحة فرصـة التعليم للجميع ، وبالتالى اشاعة ديمقراطية حقيقية فى نظـام التعليم . هذا كما أن هذه المؤسسة التليفزيونية

تساعدنا على ما يمكن أن نسميه التعليم العلاجى أو التكميلى للمتخصصين الذين تخرجوا بتعليم تجاوز واقع تطور المعارف كثيرا ، وللمدرسين الذين تسابقهم المعرفة ، ذلك بالاضافة الى العمل على حث الابداع وحفزه ؟

ان الرغبة فى مواصلة التعليم والترقى المعرفى رغبة مشروعة وضرورية فى عصرنا ، وينبغى تلبيتها على أوسع نطاق مع الخروج من دائرة الهدر الجهنمية ، بالذات وقد قدم العصر حلولا ناجعة لذلك ، تتمثل فى « المدارس والجامعات التليفزيونية الحرة » التى تقبل أى راغب فى الالتحاق بها (بصرف النظر عن اعتبارات السن أو تاريخ الحصول على شهادة ما أو ...) ، التى توفر خدماتها (حتى نيل درجة الدكتوراه) برسوم رمزية ، ذلك أن تكلفة التعليم فيها لا تتجاوز ٢٠٪ من مثيلاتها فى المؤسسات التعليمية العادية ، وتقل هذه التكلفة كلما زاد عدد الطلاب ، لأن الجزء الأكبر منها يذهب الى اعداد المقررات .

وجدير بالذكر أن الوقت الذى ينفقه طالب المؤسسات التعليمية التليفزيونية فى الدرس والبحث يقل كثيرا عن الوقت الذى يقضيه الطالب العادى فى المواصلات ، وان جامعتها أرقى من الجامعة التقليدية ، اذ يسهل نتيجة لمركزيتها أن تعكس على

نحو أكبر أهم سمات التعليم الجامعى الابداعى ، مثل حث الميل الى البحث الذاتى والاعتماد على النفس ، والارتباط بمشاكل الواقع (الدارسون فيها يرتبطون بمجالات عمل مختلفة) ، كما أن ظروفها : من اتساع القاعدة والمركزية ومرونة امكانات التطوير تتيح فرصة تحديث المقررات باستمرار ، للالتزام بأرقى المستويات . ذلك مع توافر الرقابة الاجتماعيـة عليهـا (تذاع مقرراتها على الهواء) ، هذا كما تتيح المركزية الاستفادة من الأساتذة أصحاب القدرات المتميزة ورفع عبء التكرارية عن الأساتذة عامة ، وكل ذلك يجعل العملية التعليمية فيها أرقى من وجهة النظر الابداعية .

هذا كما يمكن جعل المؤسسة التعليمية التليفزيونية أداة ناجعة لاشاعة اللغة العربية واجادتها بوصفها اداة تنظيم الوعى، لأن عدم اجادة استخدام هذه الاداة يعرقل كثيرا من قدرة المرء على التعبير وبالتالى على التفكير . وهذه قضية بالغة الأهمية ، لأن ما تتعرض له اللغة العربية يكاد يجرنا الى كارثة واسـعة الأصداء . لكن ذلك لا يعنى عدم الاهتمـام باجادة اللغـات الأجنبية فقد صار من البلاهة ، التى تنال كثيرا من المرء نفسه ، الاعتقاد فى امكان تجاهل متابعة النتاج المعرفى العالمى ، ويجدر بالذكر فى هـذا الصدد أنه رغم اعتزاز البلدان المتقدمة بلغاتها وغيرتها عليها ، فقد باتت هذه اللغات تعرف قواميس ضخمـة

للكلمات الأجنبيـــة التى دخلتها ، وجزء كبير منهـــا ينتمى الى مجال العلوم الحديثة .

ومن المهم أن نذكر فى هذا الصدد أن المؤسسة التعليمية ستجعل المدرسة الراقية والجامعـــة الراقية تصـــل الى المناطق الريفية والمعزولة والنائية من البلاد ، بل والى التلاميذ ذوى الظروف الخاصة (المرضى مثلا) . كما أنها ستقلل من اعتماد نظم التعليم على الأداء المتواضـــع لكثير من المدرسين ، وتقضى على شـــكاوى العجز فى اعـــدادهم بفتح وكسر العين على حد ســـواء .

وقد انتشر التعليم التلفازى من هذا المنطلق فى بلدان كثيرة من بريطانيا الى الصين الى اسرائيل . كما دفع ذلك التوجـــه عددا من البلدان « النامية » الى توظيف استثمارات هائلة فى مجال الاتصالات ، فعلى سبيل المثـــال تسعى الهند الى ربط مناطقها بشبكة اتصالات هائلة تكرس لها حوالى ثمانية بلايين دولار ، ادراكا منها للدفعـــة التى ستقدمها الشبـــكة الجديدة للتعليم والتقدم ، وتحلم نيودلهى بأن تربط بين ٥٧٦ ألف عربة خلال ثلاث سنوات ، فى اطار خطة تحديث تتجاوز كثيرا ما نطالب به ، وتقف بالهند على مشارف طريق المعلومات السريع .

الامكانات متيسرة :

بقيت اشارة الى أن الخبرات العالمية (والمحلية) بمواد مثل هذه المؤسسات التعليمية وفيرة ومتاحة ، كما أن مقتنباتها التقنية لا تعز علينا ، فالجامعة الحرة البريطانيـة مثلا ، تعتمد وهى أعرق الجامعات على ٥٠٠ ساعة من ارسال الاذاعة ومثلها من ارسال التليفزيون طوال العام الدراسى الواحد .

والمسألة ليست غريبـة علينا تماما فلدينـا نواة البرامج التعليمية ، ولدينا نواة برامج الجامعة الحرة . ويمكن أن تقوم على تجميعها وتطويرها جميعا بحيث تؤدى الغرض الجديد الذى نضعه نصب أعيننا . أى أنه لا ينقصنا فى هذا الصدد الا تحديد الفلسفة والهدف والمنهج ثم العمل الواعى المتقن ، على نحو متواصل . هذا كمـا أن لدينـا ما يناهر ٢٠٠ ساعة ارسـال تليفزيونى يومى ، ومثل هذه المؤسسة لا تحتاج الا الى ٨ ساعات يوميـا .

موســوعة المجهول العربيــة

وكفاءة الدورة الدمويـة للمعرفة

تحدثنا عن التعليم وتربيــة المبدع ، وأنجح ســبل تعليم الجميع . لكن محاولتنا يجب أن تتخذ منحاها نحو طرح متكامل لعناصر اشاعة المعرفة .. تماشيا مع معالجات العلم الحديث التى تتناول أى ظاهرة معقــدة بصفتها منظومة (System) وتكد فى تناول عناصرها الأبسط ، وفهم العلاقات بين هــذه العناصر ، وكيفية السيطرة عليها .

ولا بأس من تأكيد الطرح المنظومى لقضية المعرفة ببيـان أهمية وجود موسوعات عامة وموسوعات مجهول عربية وتكوين شبكة سليمة من الأوعية المعرفية (مثل شبكة الأوعية الدموية) تتمثل فى المكتبات العامة .

***

فى عام ١٩٧٤ ، ومع بداية اقامة أوربية طويلة وجدتنى ، فى ارتباط بظروف العمل المعرفى ، مستغرقا على عجل فى تكوين

مكتبة وافية ، فى فروع المعرفة المختلفة ، واستغرب زملاء المهنة، وهم من جنسيات أوربية وأمريكية مختلفــة ما كنت أفعله .. وحين استوضحت ما يستغربونه ، صــارحونى بعدم حصافــة مسلكى بينمــا يحوى المنزل المجــاور لمنزلى (ناهيك عن مقر عملى) مكتبة عامة .

ساعتها ضحكت من زملائى فالكتابة فى مجال المستقبليات لا تحتمل بعض خواء ــ ناهيك عن الخواء الكامل ــ المكتبات العامــة ، كمــا لا تحتمــل تدلل العــاملين فى مثــل هــذه المكتبات ، و ..

لكن زمــلائى الأوربيين والأمريكيين قــابلوا كل ذرائعى باستغراب أكبر ، مؤكدين لى ان زيارة واحدة للمكتبة العامة سوف تغير من هذه التصــورات المغلوطة . ولمــا كانت المكتبة مفتوحة على مدار النهار فقد قررت أن أجرب نصيحتهم بالذات بعد أن فشلت فى اقتناء عدد من الموسوعات الكبرى التى يحتاجها العمل لأنها ليست متيسرة هكذا للاقتنــاء ، لمن يدفع وســاعة يريد ، وان كانت موجودة فى كل المكتبات العامة (!) ويا للعجب فقد قلبت الزيارة تصــوراتى عن المكتبــات العامة ، رغم انى مدين بتكوينى الأول لدار الكتب المصرية ، حيث كنت أقضى بعض يومى فيها ، ولم يكن قد طرأ عليها (قبل ٤٠ سنة) ما طرأ على المكتبات المصرية العامة هذه الأيام .

شـرايين المعرفـة :

ولا أود أن أثقل على القارىء بالحـال التى وصلت اليه مكتباتنا العامة ، فلاشـك فى أن أى مهتم جرب يوما ارتيـاد احداها .. لذا فالأجدى الانتقـال مبـاشرة الى مجموعه من الأشياء التى هالتنى فى المكتبة العامة الأوربية « الصغيرة جدا » لانها تخدم « ربعا » لا يزيد على عشر عمارات (٣٠٠ شقة) ، علمـا بانها موجودة (ناهيك عن مكتبـات مؤسسات العمـل والدرس) فى سلم من المكتبات يرتقى من مكتبـة الربع الى مكتبة الحى الى مكتبة المدينـة الى المكتبات المركزية ومنهـا مكتبة كاملة مكرسة للآداب الأجنبية ، عثرت فيها حتى من الكتب العربيـة ، على ما لم أسـتطع الوصـول اليه فى دار الكتب المصريـة .

كان أول ما هالنى ان المرء يستطيع ارتياد المكتبة واستعارة ما يريد من كتبهـا بضمان رقم بطاقتـه الشخصية ، ودون أى تعقيدات بيروقراطية .

وكان ثانى ما هـالنى أن المكتبـة تتيح الاطـلاع عـلى (واسـتعارة) أى كتـاب يريد المرء ، حتى اذا لم يكن بين مقتنياتها وذلك بعلاقة أو اتفـاق مقنن بين شبكة المكتبـات العامة وهى علاقة تعمل بانتظام وسرعة بارقة .

وكان ثالث ما هالنى كثافة مرتادى المكتبة للاطلاع وتبديل الاستعارة .. بدءا من تلاميذ المدارس وحتى من يحضرون لنيل درجة الدكتوراه ، ومن الأطفال وحتى المسنين الذين يقطع مظهرهم بأنهم باتوا على المعاش (كثير من مكتباتنا القليلة ليست مجرد مخازن للكتب ، وانما مراتع « للفئران »).

وكان رابع ما هالنى دور أمينة المكتبة التي لم يلفت مظهرها نظرى للوهلة الأولى ، وان بهرتنى مع الأيام ، بانه يكفى ان تذكر لها الموضوع الذى تود الاطلاع (أو حتى الدرس المتعمق) في بابه ولن تمر دقائق حتى تجد أمامك عشرات الكتب التى تتناول موضوعك ، وهى لا تكتفى بذلك ، فى كثير من الحالات ، بل تنصحك باستشارة هذا أو ذاك ممن يرتادون المكتبة ، لانه مهتم بموضوع له علاقة بموضوعك (!) .

الموسوعات وابداع المعارف :

قائمة طويلة من الأشياء التى هالتنى فى المكتبة العامة الأوربية ، لكن لا بأس من وقفة عند طفل صغير كان قد لفت نظرى حين اكتشفت من نافذتى مواظبته فى التدريب على الرياضة وأداء الحركات الايقاعية بصورة يومية منهاجية عنيفة (كما لاحت لى للوهلة الأولى) فى الباحة الخضراء التى تتوسط عماراتنا السكنية .

بالكاد كان عمره يؤهله للوصول الى الصف الثالث في المدرسة الابتدائية ، وفوجئت به يوما يدخل المكتبة في اعتداد ، ويستأذن في تناول المجلد الثامن عشر من الموســوعة الكبرى ويذهب الى تناوله من موضعه ؛ ثم يجلس متقلبا الصفحات حتى يصل الى نقطة يستغرق عندها في القراءة بعض الوقت ، ثم يعيد مجلد الموسوعة الى مكانه وينصرف .

كان لفعل الطفل الصغير الذى يتعامل مع الموسوعة الكبرى رغم وجود موسوعة للأطفال تناهز مجلداتها العشر وموســوعة للشباب و .. كان لفعل الطفل وقع الصــدمة على اذ وجدتني أفكر بصــورة أوتوماتيكية في العمر الذى يتناهي الي معرفــة مواطني فيه ان المعلومات مصنفة في موســوعات ، ناهيــك عن توافر مقومات توظيف معلومات هــذه الموســوعات فى ابداع معارف الأمة (بالمناسبة مخترع ترتيب المعلومات وفق حروف أبجدية هو العالم العربي الخليل ابن أحمد صاحب « كتــاب العين ») كما وجدتني أفكر بالوجهة التى تدفع بها رياح المناخ العام شراع الناشئة واستعيد وقائع ابتلاع مطالعة « أخبــار الأهلى والزمالك .. » لأى اهتمام للنشء بالقراءة ..

ويستطيع القارىء ببعض الخيال تصور كيفية عمل منظومة اشاعة المعارف في المجتمعات الناهضــة .. من تفاعل محفزات

الجو العام مع حركة اصدار الكتب والموسوعات وانتشار شبكة المكتبات العامة والجامعات الحرة .. لكن ما يعطى المنظومة المعرفية وجهتها الابداعية حقيقة تلك الحلقة التى تمكن من توظيف الخبرات والمعارف المعبأة على الورق ، وتجعلها معارف حية تمارس فعلها فى جسد المجتمع وتنهض بنتاجه الابداعى الجماعى (أول نصيحة يتلقاها من حصل أى برنامج معرفى فى بلادنا : انس كل ما درسته ولنبدأ من البداية ..) واستأذن فى ايضاح طبيعة هذه الحلقة بنفس المنهج التمثيلى .

موسوعات مجهول عربية :

لقد أصبت منذ مشاهدتى الطفل الصغير يتعامل مع الموسوعة الكبرى بما يمكن ان اطلق عليه مرض الاهتمام بالموسوعات .. وعرض لى فى دنياها الواسعة ما يسمى بموسوعات الجهل أو المجهول (Ignorance) وكانت المرة الأولى التى أعرف فيها انه حتى القضايا التى لم يتعرف عليها الانسان وبصورة كاملة بعد ، باتت تصنف هى الأخرى ، تسهيلا على الباحث والمبدع والمفكر ، وفى سبيل النمو المعرفى الفعال .

واستجابة لتساؤل لابد انه لاح فى ذهن القارىء عن ماهية هذه الموسوعات لا بأس من مثال تطبيقى يوضح بيت القصيد

من التطرق الى موضوعها وأهمية الدعوة الى اصدار موسوعات مجهول عربية •

لقد اشتهرت مصر بخصوبة أراضيها وبالمناخ الذى يحسدنا عليه العالم ، ناهيك عن وجود مياه النيل ، ورغم كل هذه الظروف المواتية بتنا نسورد كثيراً من احتياجاتنا الزراعية الأساسية ، من بلدان فى ظروف طبيعية أسوأ من ظروفنا بكثير (!) وهذه مفارقة لابد وأن تذفع الى التفكير فى الأسباب ، بالذات اذا وضعنا الى جوارها مفارقة أخرى تتمثل فى ان بمصر أكثر من عشر كليات للزراعة تمنح من درجات الدكتوراه ــ مثل غيرها من كلياتنا الجامعية ــ ما يفوق كثيرا النسب المثيلة فى جامعات الدول التى نهضت زراعاتها •

وعند التفكير فى أسباب تردى الأداء على هذا النحو. لايحتاج الأمر الى كثير من العناء حتى ندرك ان للزراعة ــ كما لغيرها من الأنشطة ــ وجهها الخاص فى كل مجتمع وان ما تحتاجه فى مصر كى تتطور غير ما تحتاجه فى بلد أوربى مثلا ، وان حركة البحث العلمى المنوط بها تمحيص الوجه الخاص لزراعتنا تعمل بعيدا عن هذا الوجه •

ان نواميس تطور المعارف تعلمنا ان الانسان يقع فى أسر أول ما يحصله من معارف ومعلومات وانه يحتاج الى وقت

وخبرات متعمقة لتجاوز دائرة هذا الأسر ، والتعرف على الوجه الخاص لمشاكله وابداع ما يفيده فى حلها •

ولعل المشكلة وفق نواميس تطور المعرفة هذه هى وقوع حركتنا العلمية فى أسر ما يصل الينا من معارف خارجية حتى اننا نتعثر كثيرا فى حبائل النقل المباشر (وليس مجرد الاستفادة التى لا عيب فيها) من المدارس العلمية الأجنبية بدءا من نقل المشكلات التى نبحثها وانتهاء بالحلول التى نمحصها مرورا بمناهج البحث التى نستخدمها •• كما اننا كثيرا ما نبحث مشكلات ما على انها مشكلاتنا الأولى لمجرد أنها طرحت على هذا النحو فى الخارج ، رغم عدم صلاحيتها لاحتلال المرتبة العاشرة فى قائمة أولوياتنا بينما تبقى مشاكلنا الحقيقية دون تناول حقيقى •

فلاشك ان أبحاث استصلاح وتعمير الأراضى فى بلاد تعيش على ٥٪ من رقعتها لايمكن أن تكون ضمن المشاكل الأوربية التى تنقل عنها ، وقس على ذلك مشاكل مثل ضرورات وامكانات الميكنة الزراعية فى بلادنا ، واختلاف متطلباتنا من الهندسة الوراثية من حيث ضرورة التوصل الى محاصيل تتلاءم مع مناخنا غير الأوربى ، ومع الاستغلال المكثف للأراضى ، على نحو لا تتيحه الثلوج الأوربية ، وحتى الوصول الى الاطارات

الادارية الملائمة لظروفنا ولحركتنا العلمية ، والقادرة على تجاوز بيروقراطيتنا المتأصلة وتكاسلنا القاتل •

وهذه مجرد أمثلة ، كما أن اختيار الزراعة نفسها ليس سوى مثال ، وان كان لنا فلا بأس من مثال فاضح فى هذا الصدد يتمثل فى تلك الرسالة العلمية (!) التى تعد فى احدى كليات الهندسة فى بلادنا (!) حول ظروف الاسكان فى الفضاء الكونى (!) بينما تأخذ مشكلة الاسكان بخناق الغالبية العظمى من المصريين ، وليت لدى من يعدها ما يؤهله حتى للوحام على تطوير مسيرة الحضارة البشرية ذلك انه يسعى فى عداد مراجعه الى مادة تليفزيونية متهافتة أعدت حتى يشاهدها المرء وهو يثرثر •

والأمثلة على « توهان » حركة البحث العلمى فى بلادنا لا تحصى فى مختلف المجالات ، الأمر الذى يقطع به واقع الحال فى الشارع العربى ، لكن هدفنا هنا ليس سرد الأمثلة ، وانما الوصول الى أهمية تأليف موسوعات مجهول عربية ترشد من مسيرة حركة البحث فى بلادنا •• ذلك ان لدينا علماء أجلاء اجتازوا مرحلة تكبيل المعارف الأوربية الأولية لعقولهم وامتلكوا من القدرات النقدية الى جوار الخبرات المتعمقة بظروفنا ما يمكنهم من ادراك المشاكل الحقيقية التى مازال علينا حلها ،

حتى ننجح فى توظيف المعرفة للنهوض بمجتمعنا والاطلاع عن طريق ذلك بدورنا الحقيقى بدلا من الهرب الى أوهام •

لكننا جريا على عادات تكاد تكون قد تأصلت فينا ، نهدر خبرة هؤلاء العلماء لتظل حركة البحث العلمى لدينا ، على هزالها أو على اختلاط سلم أولوياتها •• لنأخذ مثلا خبرات الدكتور مصطفى الجبلى ومشكلات الزراعة المصرية ، وخبرات الدكتور حماد يوسف حماد ومشاكل الرى المصرى وخبرات الدكتور عبد السميع مصطفى ومشاكل مصر فى عصر الالكترونيات •• وبالطبع خبرات عشرات من العلماء الآخرين • يستطيع أصحابها أن يقوموا بعملية احياء حقيقية لحركتنا المعرفية ولحركة البحث العلمى فى بلادنا لو رسموا لنا الطريق الصحيح فى موسوعات « المجهول فى عوالم تخصصاتهم » وحددوا لحركتنا العلمية المشاكل التى تحتاج الى حلول فى ارتباط بظروف مجتمعنا •

القضية قضية وجود :

بقيت اشارة الى أن مسألة الطرح المنظومى المتكامل لموضوع شبكة الاحياء المعرفى (الموسوعة الكبرى ـ موسوعات المجهول ـ المكتبات العامة ـ الجامعات الحرة ••) ليست ترفا نقصد منه وجاهة ما فى عصر المعلومات بقدر ما هى محاولة

لمواجهة مخاطر كثيرة تهدد وجودنا ذاته ، ولا أمل فى تصدينا لها بغير التفكير المبدع الذى يلتزم ظروفنا الخاصة ولايمكن أن نشتريه جاهزا ، أو نؤجر من يقوم به عنا .

وان كان البعض يرى أن التكاليف المادية تشكل عقبة فى سبيل انشاء موسوعة عربية كبرى : فالمؤسف أننا نحن العرب ننفق على مطبوعات هائلة الحجم ولا قيمة لها فى نفس الوقت ، ما يكفى لصنع عشر موسوعات وليس موسوعة واحدة ، رغم ان هذه الموسوعة ستشكل ان انجزت أهم المنطلقات الثقافية العربية على الاطلاق .. ولعله من فضل القول الاشارة الى أن أمورا من قبيل تأليف موسوعات المجهول (تصدر فى مجلد واحد كالكتاب) لا تحتاج امكانات مادية قدر ما تحتاج الى الوعى والارادة والعمل الذى يؤدى غيابه إلى سقامنا .

وحين نقول أن المسألة مسألة وجود ومصير فليس الأمر تعميمات تطلق على علاتها .. ولا بأس هنا من مثال أخير .. فخلال نوبة الولع باقتناء الموسوعات وقع فى يدى يوما موسوعة رائعة فى مجلد واحد عن كوكب الأرض ، وحين جلست أتصفحها فوجئت بانها مطبوعة فى اسرائيل وانها معدة رغم احكام معارفها وحسن اخراجها ، على مستوى طلاب المدارس الثانوية هناك (!!) و ..

هذا كما انه ليس هنـاك ما يمنع ان يكون الطفل الذى طالعنا بثقافته الموسوعية ورياضته المنهاجيـة فى بداية هـذا المقال .. ان يكون هو هو بذاته ــ ان لم يكن شبيها له تمتع بنفس الامكانات ــ من يدير المعركة الحضارية ضدنا ، ليس من موقعه الأوربى القصى فقط ، وانما من موقع أكثر قربا بعد أن نزح الى « أرض الميعاد » التى لم تنقطع عنهـا قوافـل المهاجرين الأوربيين .

من هنــا نبــدأ ...

الاســتفادة من عقــل الأمــة

المفروض أن المؤسســات العلميــة هى الأجهزة المنوطة باستيعاب ابداع المصريين وترشيده . ومؤسساتنا العلمية جزء لا يتجزأ من المجتمع . تقبع معه فى خندق واحد ، تحكمهــا سلبياته ، ويؤثر فيها مناخه العام لكنها مطالبة (رغم ما تعانيه من أمراض وما يعترضها من عقبات) برصد المخــارج الممكنة من كل مأزق يواجه المجتمع ، فى أى من المجالات . والأهم أنه على كيفية أدائها يتوقف مدى تطور المجتمع ، وما يمكن أن يتحقق خلال هذا التطور من أحــلام وكوابيس . ولمــا كانت مسئولية مثل هذه المؤسسات تتعقد فى ظروف العصر الطافرة (من طفرة) يحق لأى مهتم أن يتساءل لمــاذا تعجز عن القيــام بوظيفتها ؟ وكيف يمكن أن تقوم بهذا الوظيفة رغم ما تعانيه من مشاكل ؟ وما هى المنطلقات الأساســية التى تمكنهــا من الاضطلاع بالدور المنوط بها فى حث واستيعاب ابداع المصريين ؟

***

ولا سبيل الى الحديث عن مؤسساتنا العلمية وأدائها دون الملمامة بالتغيرات التى تدير الرأس التى تجرى فى عالمنا ومنطقتنا ، وبامكانات العلم الحديث فى نفس الوقت ، ومن هنا ضرورة لمسات سريعة تخص امكانات العلم الجديدة والتغيرات العالمية والعربية .

يمكن أن نلمس ما أصاب الامكانات العلمية من تغيرات اذا عرفنا أن خمس دقائق من التصوير الفضائى اليوم تتيح من المعلومات ما تستغرق الطائرات فى جمعه عامين كاملين ، وما لا يتيسر للبعثات المساحية الا فيما يقرب من ثمانين عاما . والمعلومات الموجودة فى الصور الفضائية ليست ضربا من الترف أو الخيال ، فهى تخص مجالات هامة تمس مختلف جوانب حياة الانسان ، من طقس الى تربة الى ثروة طبيعية ... الخ . والمهم هنا أن الفقراء والمتخلفين أكثر من غيرهم افتقارا ــ وحاجة فى نفس الوقت ــ الى مثل هذه المعلومات ، والحصول عليها بالطرق التقليدية اجراء بطيء وباهظ التكاليف ، تعوقه كثيرا ظروف التخلف والفقر وضعف البنى الأساسية ونقص الكوادر الفنية ، ناهيك عن طبيعة الصور الفضائية المفصلة ، الخالية من عيوب الفسيفساء « الموزايكو » وعن أن تكاليف الحصول على المعلومات من مثل هذه الصور الفضائية صارت أقل بما لا يقاس مقارنة بالطرق الأخرى .

غير أن وجها آخر لامكانات العلم الهائلة يكتشف عنه قول قديم ثاقب للامام الشافعي رضى الله عنه : « مثل الذى يطلب العلم جزافا كمثل حاطب ليل يقطع حزمة حطب فيحملها ، ولعل بهـا أفعى تلدغه وهو لا يدرى » ، والترجمـة العصرية لهذا القول يمكن استشفافه مما يشهده عالمنا من طفره فى استخدام الحاسبات الالكترونية فى كافة مجالات الحيـاة ، وان كان من الصحيح أن هذه الأجهزة صارت تجث قدرات الانسان بملايين المرات فان بامكانها أن تكون أيضا وبالا ما بعده وبال ، اذ انها قادرة على مضاعفة الأخطاء (التى يجرى ادخالها اليها) بما يقدر بملايين المرات فى الثانية الواحدة !!

ويمكن أن نذهب بهذا الوجـه الى مداه اذا تصـورنا مريضا ، لم تشخص أوجاعه بصورة صحيحة ، يدخل صيدلية تحوى أحدث ما توصل اليه العلم من دواء ، ويمضى فى تنـاول عجائب الأدوية الشافية « كلشنكان » ، فيكون تفاقم الحـالة أو الموت لا قدر الله نصيبه ، بدلا من الشفاء .

آفاق جديدة للابداع العلمى :

ولا بأس من أن ندلف بعد ذلك الى لمسـة أخرى حول طبائع الابداع العلمى ذاته . فحتى وقت قريب كان فى عداد العاملين بالشركات الصناعية الكبرى كثير من المتخصصين فى

البحث أو الابداع العلمى والتطوير . لكنه وسط المبــاراة الشرسة ، التى أخذت بلباب السوق العالمية ، صــار تحسين وتجديد السلع على نحو مستمر هو العامل الحاسم فى القدرة على الوجود والربح .

ولهذا تزايدت ظاهرة ولادة مؤسسات جديدة أكثر امكانية والمــاما وقدرة على النهوض بدور ادارات البحث العــلمى ، وتخصصت فى تطوير ما يطلب منها فى أى مجال من المجــالات ، وهى تؤدى عملا متكاملا حتى تقدم المنتج جاهزاً ، وتجند فرقا متكاملة ، مجهزة بأحدث أساليب التفكير الابداعى وحثه وتعمل الواحدة منها ثمانين ساعة أسبوعيا حتى تنتهى من حل المشكلة المعنيــة !!

وظهور مثل هــذه المؤسسات يضفى على حــركة البحث العلمى ديناميــة هائلة ، الأمر الذى دفع عددا من المؤسسات الضخمة الى التعامل معها ، متخطية ادارة البحث الموجود فيهــا (آبل ماكنتوش مثلا بصدد تصميم الفأرة التى صنعت ثورة فى استخدام الكمبوتر) . وهناك ملمح آخر يمكن ادراكه من البحوث الجارية حول نوع جديد من الطاقة سيكون بمثابة النهاية لكل أزمة فيها ، هو طاقة الأندماج النووى . وما يعنينا فى هــذا الصدد أن الدول المتقدمة كلها تعمل معا متكاتفة فى حل المشاكل

التى تعترض توليد مثل هذه الطاقة ، وذلك لعجز أى من هذه البلدان منفردة عن تحمل الأعباء المالية والفنية الهائلة ، اللازمة لتحقيق هذا الحلم • وهكذا نجد اليابان والولايات المتحدة وروسيا وأوربا يعملون يدا فى يد • ولعل هذه النقطة تكون قد نقلتنا بالفعل الى ما يخص التغيرات العالمية والعربية •

لقد ساهم مجمل أوضاع الابداع العلمى فى تزايد ثقل التكنوقراط واحتلالهم أهمية متزايدة حتى فى أكثر المجتمعات التى كانت تحتفى أيما احتفاء بالأولويات الاجتماعية والايديولوجية (الصين والاتحاد السوفيتى سابقا مثلا) كما أصبحت المباراة فى التوصل الى التكنولوجيات الحديثة تجرى بكل الوسائل (صار التجسس التكنولوجى من موضوعات الغلاف الرائجة فى صحافة العصر) •

وفى عالم مثل هذا لن يكون هناك وجود لمجموعة بشرية لا تدرك ما يدور حولها سواء من حيث امكانات العلم ، أو من حيث ظروف استخدام هذه الامكانات • ويمكن ادراك أبعاد الموقف فيما يخص العرب من التطرق الى قول رئيس الجمعية البريطانية لتقدم العلوم فى أحد اجتماعاتها خلال السنوات الأخيرة ، وهو ينتقد بحرارة العلماء والسياسيين البريطانيين لما آل الية مآل العلوم هناك ، وأيضا من لومة

لهيئات التدريس على دورها فى تأخير عجلة التقدم ، واهابتـه بالحكومة البريطانية أن ترفع من شأن البحث العلمى بتسهيل التربية العلمية فى المدارس والجامعات ، ومد يد العون المـادى والمعنوى الى هيئات الأبحاث والدراسات فى البلاد لوقف تسرب علمائها الى الخارج طمعا فى ظروف عمل أفضل ودخل أكبر •

واذا كانت هذه حالة « بريطانيا العظمى » فلا مجال لتفصيل القول فيما يخص العالم العربى الذى تحول على مدى ثلاثين عاما من أمة ماردة بالامكانية والحماس ، الى أمة هائلة الموارد ، ممعنة فى هدرها ، رغم كونها مهددة بالفناء (؟ !) من كل جانب •

مدرسـة ابداع قومية :

ومجمل الأوضاع العلمية والعالمية والعربية تبين مدى حاجة الأمة العربية الى أن يكون عقلها (مؤسسات البحث العلمى) فى أقصى حـالات الاستعداد ، والى أن يعمل هـذا العقل فى اتاحة أفضل نتاج لمـا يتوفر لديها من امكانات ، حتى تخرج من مأزقها ناهيك عن تحقيق أحلامها ، وليست هنـاك حاجة بعد ما تقدم الى تبرير التزامنا منطلقـا قوميا فى البحث ، وذلك بعيدا عن الرومانسيات والتصورات الوحدوية الساذجة ، لأن المقصود هنا هو التكامل من خلال التنوع والاختلاف • وان

كان لابد من اضافة هنا فهى أننا نعيش فى عالم أعجز الكيانات الصغيرة عن العيش . مما حدا ببلدان فى حجم بريطانيـا وفرنسا وألمـانيا أن تسعى الى اشكال من التكامل وازالة الحدود ، رغم عدم امتلاكهـا معشار ما تملكه الأمة العربيـة من مقومات التكامل ، أو بلوغ حاجتها المصيرية الى هذا التكامل معشار احتياج الأمة العربية له .

ولايمكن ترك مسـألة اعتمادنا المنطلق القومى فى الحديث دون ايضاح أن الأمر لا يقتصر على ظروف العصر ، ذلك أن الاستعانة بالخبرة الأجنبية فى هـذا الصدد محدود القيمة ، فاللهاث فى اثر المجتمعات الغربية ، الذى كان هدفا مسلما به فى فترات سابقة ، أمر ظهر فى جلاء ، أنه ليس طريقنا . هـذا كما بات من المسلم به أن التكنولوجيا حقيقة اجتماعية واقتصـادية وليست حقيقة مجردة . وكل ذلك مما يفرض علينـا تجـاوز استيعاب وسائل العصر بل وحتى توظيفها المبدع ، الى ابداع ما يخصنا من حلول ووسائل ، وحتى نوضح ذلك لنأخذ بعض الأمثـلة .

من المسلم به فى الأدبيات العلمية الغربية أن الوضع البيئى (المقصود هنا ارتفاع درجة الحرارة والجفاف) يضفى على عملية النهوض الصناعى والتكنولوجى ، فى بلدان الجنوب ، أعبـاء

اضافية لا تستوجبها هذه العملية فى بلدان الشمال • ويمكن أن تنعكس هـذه الاحتياجات فى مؤشر نهـائى ، هو حاجـة الجنوبيين الى قدر أكبر من الطاقة • وهذه المسلمة (!) تنطوى على مفارقات تعرى الامكانيـة والعجز فى نفس الوقت • ذلك أن ارتفاع درجة الحرارة هو فى حد ذاته طاقة • وهنـا تكمن الامكانية • لكن عجزنا فى الجنوب عن استغلال هذه الامكانية هو الذى يكرس ما تروج له الأدبيات الغربية •

وجوهر المفارقة يكمن فى أننا ننتظر فى موضوع استغلال الطاقة الشمسية ، كعهدنا دائما ، أن يأتينا الحل من الشـمال (الذى يفتقر الى الشـمس وبالتالى لا يشـكل الأمر أولوية عنده) ولهذا تبقى انجازاتنا فى هذا المجـال محكومة بالجهود التى يبذلها الشمال فى الفضاء القريب من الأرض فى الأقمـار الصناعية وسفن الفضاء حيث توجد شمس (شبيهة بشمسنا) •

الأجانب يعرفون العربية أفضل :

واذا أخذنا دخول عصر الكمبيوتر لوجدنا مثلا فاضحا آخر فجوهر التعامل مع الكمبيوتر هو استرجاع المعلومات (المخزنة والمعالجة) منه • ولا يخفى على أحد أن سهولة مثل هذه المعالجة وشيوعهـا يرتبط بتعريب الكمبيوتر • لكن مفهوم التعريب

انحصر حتى وقت قريب فى استخدام لوحة مفاتيح بشكل الحروف العربية ، ذلك بينما تختلف اللغة العربية عن اللغات الأصلية للكمبيوتر اشتقاقا (أى صرفا) ونحوا ونشكيلا ودلالة ، الأمر الذى يجعل التعامل الكمبيوترى بأشكال حروف العربية فقط أمر محدود القيمة الى أقصى حد ، قياسا على الممكن عند التعامل باللغة العربية (وليس حروفها فقط) . لقد ظللنا نطمع فى هذا الصدد أن تصلنا المعارف الكمبيوترية الخاصة باللغة العربية من أمريكا واليابان وبريطانيا . وكأن اللغة العربية يمكن أن تكون بنحوها وصرفها وأشكال كتابتها فى متناول هذه البلدان ، أكثر مما هى فى متناول أبناء الحجاز ونجد والقاهرة وعمان .

ولا يحتاج الأمر الى الاستطراد فى سرد أمثلة فاضحة أخرى لبيان المهام النوعية المختلفة المطروحة على مدرستنا القومية الخاصة فى الابداع العلمى ، أو للتأكيد على ضرورة هذه المدرسة ، ويمكن هنا النكوص بالحديث من المستوى القومى الى المستوى القطرى . ذلك أن مصر هى البلد المؤهل بامكانات الحاضر وليس بالانجازات التاريخية وحدها ، لأن يلعب دورا قياديا فى هذا المجال . والأمة العربية ليست فى حاجة الى دور مصر فى مجال أكثر مما هى فى حاجة اليه فى دنيا الابداع والعلمى على وجه الخصوص .

معوقات تعترض الطريق :

ان الامانـة تدعو قبل الحـديث عن عقل قومى للأمـة (مدرسة قومية للأبداع والبحث) الى منافشة الظروف الراهنة لمؤسسات البحث العلمى فى مصر وكل المؤشرات تبين أنها :

* تعانى رغم النقص الكبير فى الكوادر من الترهل المعوق لأنه حجم غير موظف يختلف عن الحجم الوظيفى الذى يجعل من الكبر بل والعملقة ظاهرة صحية .

* تعانى من تخلف الاطارات الادارية التى تكبل المجتمع بأسره ، وتستنفد ٨٠٪ من الوقت تاركة البقية القليلة الباقيـة للعمـل .

* تعانى من خلط قاتل بين مهمة المبدع ومهمة المـايسترو ان جازت استعارة هذه المصطلح الموسيقى فى مجـال البحث العـلمى .

* تعانى من استنزاف مستمر لأفضل الكوادر العلمية التى تتسرب الى الخارج طمعا فى ظروف عمل أفضل ودخل أكبر .

* تعانى من بقايا القيم والأخلاقيات القبلية والاقطاعيـة والحرفية ، برغم قيام أفرادها بعمليات متلاحمة على نحو خارق . يحتفظون فيما بينهم بمسافات تقدر بآلاف الأميال ، كل فى واديه يعتبر عملة مملكته وملكيته ، وليس هنـاك خط منهجى حاكم الا خط « الأنا » الذى يتغير مع تغيير الأفراد .

ذلك اضافة الى أن مؤسسات البحث العلمى فى مصر لاتسلم من السمات السلبية للحركة العلميــة فى دول العــالم الثالث عامة مثل :

* السرعة التى ينتقل بها الباحث من القرية الى المدينــة الكبيرة ، ثم الى الاقامة الطويلة فى المدن الأجنبية ، بما ينطوى عليه ذلك من مغامرات وجدانية وثقافيــة واجتماعيــة ، تنقل صاحبها فى الغالب الى صفوف الصفوة التى تعجز عن الاندماج فى مجتماعتها الأصلية على وجه العموم ، دع عنك مجتمعاتهــا القرويــة .

* التبعية لأنظمة البحث فى البلدان المتقدمة لأســباب مختلفة منها عملية تكوين الكوادر العلميــة وميزانية المؤسسات ومصادرها . الأمر الذى يؤدى الى الاخلال بالأولويات البحثية التى يحتاجها المجتمع .

* الظروف الصعبة والميزانيات الضئيلة لهذه المؤسسات ، ناهيك عن عدم تمتع العمل فيها بمكانة اجتماعية بارزة الأمر الذى يؤدى الى تدنى منفعته الاجتماعية .

* التعليم الذى لا يشكل أعدادا مناسبا لمهنة البحث ، وتباعد الارتباط بين التخصص الذى يهم المرء والتخصص الذى يجد نفسه ملتزما بتأديته ، اضافة الى مفارقة شغل من تخصصوا

فى فروع علميـة نوعية عشرات السنين للمناصـب الادارية التى لا يكونون مؤهلين لها أكثر من غيرهم •

وقبل ذلك كله وبعده غياب الرأى العام الذى يصنع مناخا مواتيا يجسـم ديمقراطيا المشـاكل التى تواجـه مثل هـذه المؤسسات •

الطـريق الى الابـداع :

وذلك كله يساهم بلا جـدال فى حالة الغياب التى نراها للابداع عن الشـارع المصرى والعربى عامة ، رغم الحاجـة الشديدة اليه ورغم وجود مؤسسات عديدة تحمـل لافتاته • ولعله من الضرورى الاشارة الى أن الأمر يحتـاج الى ارادة فاعلة قادرة على رسم استراتيجية واضحة ، ترتبط باحتياجات المجتمع ، يقوم فيها هيكل ادارى قادر بتنفيذ خطـة سليمـة ناجزة ، مع توفير الموارد اللازمة وتهيئة المناخ المناسـب ، مع التأكيد على ضرورة أن يجرى ذلك كله وفق تصـور قومى الأبعاد وفى اطار دينامى يستوعب المتغيرات دون فقدان للاتجاه •

ومن فضل القول بالتالى التأكيد على أن القضية لا تخص العلميين وحدهم فالمسألة تشغل مساحة هائلة تمتد بين أحلام الأمة فى مستقبلها ، وبين المناخ العام ، ومرورا بنظـام التعليم المبنى على التلقين والترديد ، والأعلام والتثقيف و •••

الســادس من أكتوبــر

والأوهام الشائعة حول الإلهام والعملية الابداعية

هناك آوهام شائعة حول طبيعة الموهبة والالهام والابداع . وهذه الأوهام تخلق حواجز بين الناس والفطرة الابداعيــة التى خلقوا عليها ، الأمر الذى لابد أن يقودهــم الى التبلد والمرض بكافة أنواعه (نفسى ــ اجتماعى ــ عضــوى ...) وفهم هذه الأوهام قضية هامة لأنها ضمن معوقات تجلى الثروة الابداعية فى كامل رونقها ، وهى الثروة التى وسمت تقدم أى مجموعــة بشرية وتميزهــا على مدار الأزمنــة والعصــور . ولمــا كانت أى مشكلة من مشاكلنا لن تجد حلا حقيقيا لها دون جهد ابداعى ، يجرى فى مناخ ابداعى ، برزت أهميــة وجود تصورات صحيحة عن العمليــة الابداعية ولا بأس من أن يكون طريقنا الى اضاءة ذلك كله بعض ما حدث يوم الســادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

***

زعم بعض العرب الأقدمين أن الجن كانوا يسكنون قرية عبقر . ومن هنا كان وصفهم لكل من يأتى بشىء فذ بالعبقرية قاصدين أن الجديد لا يأتي المرء إلا على جناح همس « شيطانى » . وبكلمات أخرى أن الانسان غير جدير بالنتاج الجديد الفذ ، وأن مثل هذا النتاج لابد وأن يسقط عليه من عالم آخر .

ولم يكن هؤلاء العرب شواذ فى تصورهم . فقد كتب أفلاطون أن الشاعر — شيخ المبدعين — كائن أثيرى مقدس له جناحان ، ولا يمكن أن يبدع قبل أن يفقده الالهام عقله . أو قبل أن يدركه « شيطان » الالهام بكرمه .

ولا يقتصر هذا التصور على بعض العرب وأفلاطون . فكثير من المبدعين يؤكدون ، حتى يومنا هذا ، أنهم ليسوا أدوات فى عملية الابداع ، وأن « شيطانا » ما يطرق بابهم ، ويسر اليهم بحلول المشاكل التى تؤرقهم ، بعد أن يكونوا قد فشلوا مرارا وتكرارا فى التوصل الى هذه الحلول ، أو حتى نسوا النجاح والفشل . وأن هذا الشيطان يزورهم فى بعض الأحيان وهم فى « سابع نومة » ، وفى أحيان أخرى وهم يتجولون فى الخلاء ، بل ولا يستحى حتى من اقتحام دورات المياه عليهم ولعلنا نذكر أن « وجدتها . وجدتها » ، تلك الصيحة التقليدية

التى يعلن بها كل مبدع عن فرحته بالوصـول الى ما هو غير تقليدى ، صـدرت عن أرشـميدس للمرة الأولى عـلى باب حمامه ، بعد أن وقع له اكتشافه المشهور .

وبالطبع لا يمكن اتهام المبدعين والنوابغ والعباقرة من « أتباع » الجن والشياطين بالكذب أو الضلال .. كل ما فى الأمر أن ما يحيط بهم من ظروف يجعلهم عاجزين عن استيعاب مجمل ما يحدث فى رحلة ـ أو دراما ـ الكشف والابداع . كما يجعلهم ينسون أو يتناسون كل ما سبق محطة الوصول ، ولا يرون ضرورة أو معنى لتقصى ما حـدث قبل المشـهد الأخـير .

لكننا نستطيع ادراك جوهر دراما النبوغ حقيقة من كلام مبدعين غيرهم ، لم تطمس فرحة الوصـول أو يطمس تهليل المصفقين رؤيتهم ، فوقفوا كثيرا عند الجهـد الجبـار الذى يقدمونه قربانا « لشيطان » الالهام حتى يشرفهم بالزيارة .

ولا شك فى أن القارىء يسأل عن علاقة كل ذلك بالسادس من أكتوبر والعملية الابداعية . ونحن نرى العلاقة وثيقة اذا أخذنا بعين الاعتبـار أن أول المفاهيم التى يجب تدقيقها ونحن نتحدث عن نوامس الابداع هو مفهوم الالهام .. فمن أكثر

الأمور جلاء فى هـذا السبيل ما حدث فيما يخص فتح ثغرات فى الساتر الترابى على القناة عام ١٩٧٣ ٠

وكلنا يتذكر ما كان يقال عن استحالة اجتياز هذا الساتر فى الظروف القائمة آنذاك ٠ لكن أحد المهندسين المصريين ، المهمومين بكيفية اجتياز الساتر ، استفاد من تجربة خبرها قبل ذلك فى عمليـة تجريف الصخور بالمياه (ذات الضغط العالى) أثناء بناء السد العـالى ، ومن الهم والخبرة معا تولد الحـل الابداعى الذى أذهل الجميع وهو تجريف أجزاء من السـاتر الترابى بمياه القناة ، باستخدام طلمبات ترفعها وتكسبها الضغط المطلوب ٠

ولايضاح طبيعة الالهام على نحو أكبر أعود الى موقف حدث فى فجر اختراع الطيران حيث كان المـأخذ الذى يصيب هـذا الاختراع فى مقتـل ، هو أن الطـائرة سرعان ما تهوى وتتحطم بمن فيها ، عند أى خلل يصيب أيا من أجهزتها الحيوية٠ ويومها كان واحد من الرواد الأوائل المبتكرين لأجهزة الطيران يمضى مهموما بهذه المشكلة ، فى طريقة لمشاهدة أحد استعراضات الاقلاع والتحليق والهبوط ، فيما يشبه ملعب كرة القدم (كان الطيران مازال مجرد استعراض وفرجة) ، ومع كل القلق الذى يحسه على الطيارين والهم الذى ينوء به ، طالعه وجه متفرج

بعين واحدة (أعور) وللتو برقت فى ذهنه المهموم الفكرة « العبقرية » •• لماذا لا تكون كل الأجهزة الحساسة فى الطائرة مزدوجة ، كما هى الحال بالنسبة لعينى الانسان ، بحيث يصاب الجهاز الأساسى بالعطب ؟ ! وكانت هذه هى الفكرة التى فتحت الباب لتحول الطيران من مغامرة غير محمودة العواقب ، الى ثورة حضارية حقيقية ، اذ جعلت منه عملية تتمتع بضمانات أمان لا تقل عما يتوفر لغيره من وسائل النقل •

هكذا فان ما نطلق عليه الهاما ليس تجربة بعيدة عن الفهم اذا ما خلصناها من هالات الغموض •• انه تفاعل وتجل لخبرات مفهومة ، فما نطلق عليه الهاما ليس سوى كد مخلص لذهن مهموم بمشكلة يحاول المبدع من خلاله حشد خبرات البشر السابقة ، وتطويرها وتوظيفها لمواجهة المشكلة المهموم بها • لكنه تجل لابد أن تتوفر لتحققه بعض الشروط • والتجربة الابداعية لتجريف أجزاء من الساتر الترابى تكشف لنا بعض هذه الشروط على أفضل الوجوه •

ولعل أول هذه الشروط هو توفر درجة من السماح تفتح الباب أمام التعبير عما يجول بالخاطر (دون خوف ، حتى من التسفيه) • فلنتصور أن المبدع الذى فكر فى نقل عملية تجريف البقايا فى السد العالى الى جبهة القتال ، لفتح ثغرات

فى الساتر الترابى على القنـــاة كان مجندا عاديا ، وكان أول من سمع فكرته ، وفق التسلســـل الهرمى ، عريف بالأقدميـــة (لا يفك الخط) ليواجه المجند الجديد برد فعل من قبيل لسه طالع من البيضة وداخل الجيش أولة امبارح وعاوز يعمل فيها أمير ؟ ! أو حتى أن أول من سمع فكرته كان ضابطا كبيرا قد تمكن من وجدانه أن الأمر يحتـــاج الى وسائل جبارة والى تفكير رتب كبيرة خبرت الحرب ، وتعلمت فى أكاديميات عسكرية أجنبيـــة و ..

من هنا ضرورة جو السماح والاستعداد للسماع ، حتى بالنسبة لكلام ربما بدا للوهلة الأولى غير معقول ، وربما كان غير محكم .

وبالمناسبة فان أرقى ما توصل البشر اليه فى مجال تنشيط الابداع هو تشجيع بعض ذوى التركيبة الذهنية الخاصـــة على التعبير عما يجول بخواطرهم بصـــدد مشـــاكل تطرح عليهم فجأة ، وعلى أن يقولوا أول ما يطرأ على أذهانهم ، دون تمحيص، ودون خوف من أن يبدو كلاما فارغا . على أن تجرى عمليـــات التمحيص بواسطة خبراء لهم تركيبة خاصـــة أخرى فيما بعد .

بعد توفر درجة معقولة من الســـماح يأتى الاســـتعداد الحقيقى للحوار . والأهم من ذلك توفير الضمانات لاطراده ،

فقد اعتدنا فى حواراتنا للأسف الشديد ، أن ينشغل كل منا ، خلال حديث الآخر ، باعداد ما سيدافع به عن موقفه المسبق ، دون أدنى جهد للتفكير فى مدى وجاهة ما يقال • ولا يمكن لحوار أن يضطرد على نحو مثمر دون استعداد لتقويم وجهات النظر الأخرى وتبنى ما هو منطقى منها دون حساسية وبعيدا عن رواسب القيم والأخلاقيات القبلية والحرفية ، التى تجعل كل منا يضخم من أناه دون أن يرى الآخرين ، بالذات اذا كان سلم الترقى (غير المبنى على أسباب موضوعية غالبا) قد قفز به بعيدا بحيث يعتبر مجاله ــ دون حق ــ مملكته وملكيته •

ان سبيل ازالة الساتر الترابى يوم السادس من أكتوبر لا يلقى الضوء على طبيعة الالهام وشروط العملية الابداعية فقط ، بل وعلى طبيعة الابداع نفسه ، وفهم معنى العمل المبدع ــ بعيدا عن التصورات الرومانسية والنرجسية ــ على أنه اضافة الى أفكار الآخرين وتطويرها ، فالابداع ليس اختراعا من الصفر ، وليس فى المجال العلمى أو التقنى وحده وانما فى كل المجالات ، ولا بأس من أن نعرج هنا الى ذكر ما يشيع فى النقد الأدبى الحديث عن التناص •• لقد امتد مفهوم احالة الرمز اللغوى فى النص الى رمز تعبيرى آخر ، امتد ليشمل النص الفنى بأكمله ، لأن النص لا يشير الى جوهر بداخله فقط ،

بل يشير الى نص أو نصــوص أخرى فى سلسلة لا نهائية من علاقات التناص «intertextuality» أى أن النص الفنى يدخل فى علاقات تناص لا نهائية مع ما سبقه وما يلحق به من نصوص. هذا كما تكشف تجربة اختراق الساتر الترابى ما يحتاجه الابداع من التراسل بين الخبرات (من السد الى الحرب) ومن تجاوز للتخصصيــة الضيقــة ، ذلك أننا نعيش بالفعــل عصر ما بعد التخصص لأن مجالات ابداعية جديدة تنشأ نتيجة التزاوج بين مجالات أخرى قد تكون متباعدة .

لقد صارت الدراسات عبر التخصصية «interdisciplinar» من أهم منابع الابداع و « الالهام » . وقد يبدو لذهن غيور أننا لم نعد فى حاجة الى أصحاب الفكر الموسوعى ، أو أن زمن هؤلاء الرواد قد ولى الى غير رجعــة ، بالذات بعد أن تضخمت المــادة المعرفية بصــورة تفوق قدرة الذاكرة البشرية ، وتعددت المناهج وتعقدت وتخصصت بصورة يعجز أى عقل على الالمــام بها بصــورة شاملة لكن نظم المعلومات أصبحت عونا معقولا ولم تعد مهمــة طالب المعرفة تتمثل معهــا فى تذكر مادته بل فى قدرته على الوصــول الى ضالته من المعلومات والمعــارف .. أنه بات يستغل موارد ذاكرته بصورة اقتصادية فعالة بأن يختزن المعرفة فيها مقطرة فى هيئة منهج وبنى ونماذج ارشادية وعلاقات وتوجهات ومبادىء وحقائق أساسية وحدود واضحة .

وليس هدف المبدع فى نشاطه عبر التخصصى الالمـام بل الموائمة وما أكبر الفرق بينهما ، وفقدان ذلك يؤدى الى أن تصبح المجـالات العلميـة والمهنية والثقافيـة أشبه بالجزر المنعزلة ، وان كان ذلك جائزا فى المـاضى فلم يعد يجوز فى هذا العصر ، مع طبيعة المشاكل التى نواجهها اليوم فى عـالم شديد التعقد والتشابك يطرح اشكاليات غير مسبوقة ، ومع ظهور توليفات علميـة ومنهجية مستحدثة ، تستحث المفكر على توليد الجديد واعاذة طرح القديم •

ان طبيعـة العصر قد دفعت بالتـلاقح العلمى واقتراض المناهج الى مشارف جديدة لم تكن فى الحسبان ، ولا بأس من أن تكون اللغة مثالنا فى هذا الصـدد ، فهى أهم مقومات ذكاء الانسان كمـا أنها ركيزة أساسية لوحدة المعرفة ، ناهبك عن أن مناهجها باتت تمثل نموذجا معرفيا ارشاديا يمكن تطبيقه على ما هو خارج نطاقها (اللغة) •

لقد سادت نظريـة التطور لداروين الفـكر العلمى حتى منتصف هذا القرن وظهر معها علم فقه اللغة ليدرس أصـل اللغـات ويقارن بينها ويوصف ويصنف خصائصها وفصائلها • مما أطاح الى الأبد بعصر الأحكام القيميـة لتقويم اللغات بين لغات راقية ولغات بدائية ، وذلك بعد أن زال وهم الرقى الذى

تصوره الأوربيون عن لغاتهم اثر اكتشافهم أن اللغـة الهندية القديمة (السنسكريتية) هى أصل هذه اللغات .

ثم ظهر الاتجاه التحليلى فى دراسة اللغة تأثرا بتجربة علم الكيمياء فى تحليل المركبات العضـوية الى عناصرها الأولية ، وهكذا تم تحليل الاشـارة الكلامية الى فونيمات و ... ثم ظهرت بوادر الاحصـاء اللغوى فى نهاية القرن المـاضى عندما استخدم لأغراض ذات طابع عملى أكثر منه نظريا ، مثل تحقيق التراث والتحليل الكمى لأساليب الأدباء والشعراء و ...

ولعل ذلك كله يقربنا مما قاله نعوم تشومسكى من أن مدخل حـل اشـكالية اللغة ربما كمن فى البيولوجى وليس فى المنطق أو الرياضيات !!

الى هذا الحد وصـل التلاقح العلمى واقتراض المناهج ما بين العلوم المختلفة التى قد تبدو متباعدة . وهذا يجعل المبدع المعاصر فى حاجة الى حد أدنى من الخلفية المعرفية ، التى تتباين مكوناتها مع المجالات الأساسية لاهتمامه .

تبقى مجموعة من شروط العملية الابداعية أوضحتها بجلاء تجربة السادس من أكتوبر ولا نملك الا أن نمر على بعضها هنا سريعا لاعتبارات المساحة .

منها مثلا أهمية الخبرة العاطفية للتجربة الابداعية فاضافة الى ما وراء الكد من حب عارم يعد عنصرا أساسيا فى طريق الكشف ، فالأرجح أن من نقل تجربة التجريف كان قد استهان بتصديقها : كيف يمكن ازاحة الحجر بالمياه ؟ يا رجل قل كلاما غير ذلك ، حتى رأى بعينه ومارس بيده • وكانت هذه الخبرة العاطفية عاملا هاما فى تجاوز ما كان شائعا من استحالة التعامل مع الساتر الترابى فى حينه •

لكن لعل أهم الشروط اطلاقا هو ضرورة اكتمال دائرة الابداع والاستفادة من أفكار الحوار ، ونقلها الى حيز التنفيذ، حتى تشكل حثا ابداعيا متواصلا (بعيدا عن الهدر والاحباط) وهنا ضرورة المبادرة الى اشراك الجهات التنفيذية فى هذا الحوار ، بل والتشجيع على تكوين أدوات تنفيذية غير تقليدية، والتحلى فى ذلك كله بنفس طويل يجعل عملية الوصول بالحوار الى التنفيذ هى المحك والفيصل فى أن نكون جميعا ــ متحاورين أو منفذين ــ جادين أو هازلين •• ونؤكد على أنه لا بأس طبعا من أن يكون اهتمامنا بمشاكل صغيرة أو جزئية ، فليس السد والحرب وما شابههما من مشروعات كبرى هو المجال الوحيد للابداع ، ولا مجال لخوض ما شابهها دون لياقة ودربة ابداعية لا تتأتى الا من الممارسات الصغيرة •

غير أن المبادرات الابداعية المتفرقة لا يمكن فى النهايـة أن تتحول الى تيار فاعل مطرد له قيمتـه ، ان لم تستقم منظومة القيم فى المجتمع بحيث تصبح القيمـة للأنفع « اجتماعيـا » ، الأمر الذى يؤدى الى حث هذه المبادرات وتناميها دوما .

بقيت ملاحظة أخيرة هى أن اختيار جزئيـة مما جرى فى السادس من أكتوبر لاضاءة العملية الابداعية وأوهامها جـاء فى النهايـة بهـدف ايضـاح ترابط الحث الابداعى على مستوى المجتمع كله ، وما فجره ما جرى يوم السادس من أكتوبر فى جميع مجالات حياتنا ــ بما فى ذلك مجال الأدب والفن ــ من طاقة ابداعية أمر بليغ فى جلائه .

التليفزيون والتفكير على الهواء

أين الدورى العام لتحويل الفهلوة الى ابداع ؟

لدينا الدورى العام لكرة القدم ، ودورى أندية الدرجتين الأولى والثانية ودورى المدارس والجامعات والدورات الرمضانية للصغار والكبار ، ولقدامى اللاعبين والفنانين و ... ، ولا تكاد مجموعة من الشباب أو الأطفال تقع على مساحة صغيرة فى الشارع أو البيت حتى تبدأ فى لعب كرة القدم .

فهل يمكن أن يكون لدينا بالمقابل دورى عام لحفز الابداع ؟ .. وهل يمكن أن تكون مباريات هذا الدورى مصممة ومذاعة تليفزيونيا ، حتى نجد كبارنا وصغارنا يوما يلعبون لعبة التفكير والابتكار ، كما يفعلون تقليدا لفنانى البرنامج التليفزيونى « بدون كلام » مثلا ؟

* * *

المعروف أن الأزمــة والحاجــة هى أم الاختراع أو أم الأبداع . وبهذا المقياس ينبغى أن نكون رأس الأمم المبدعة ، لأنه ليس هنــاك مخرج من الأزمات التى نواجهها أو ابتعــاد عن تفاقمها اذا وقفنــا عند المــاضى والحاضر . وهــذه قضية متشعبة سنقف منها عند زاوية ضيقة وان كانت فى غاية الأهمية هى : هل يمكن أن يكون للتليفزيون دور فى النهوض بالابداع، وبالتحديد فى حثه وحفزه ؟

صحيح أن النــاس تعودوا على التحــذيرات من تأثــير التليفزيــون الضــار عليهم وعــلى أولادهم .. عــلى وقتهم واستيعابهم ، بل وعلى صحتهم ، وصحــة سعادتهم الأسرية ، ناهيك عن البساط الذى يسحبه من تحت أقدام ما يرقيهم من أنشطة ، و ...

لكن هذه صورة مغلوطة تماما فليست كل البرامج والمواد التليفزيونية كذلك ، لأن التليفزيون صار على الجــانب الآخر أعظم وسيلة للتأثير على جميع جوانب الحيــاة ، ولأن دوره ينمو باطراد .. فكم من طفل ــ مثلا ــ يبهرنا بمعلومة أو تصرف أو ... ، ونكتشف أن المصدر كان التلفاز .

وقد أدركت تجمعــات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى ترقية متفرجيها والأخذ بيدهم . وهذه عملية يسيرة

فوق كونها سهلة ممكنـــة ، فأغلب الجامعـــات الموجودة حاليا « دقة قديمة » . بينما الجامعات الحديثة جامعات تليفزيونيـــة مفتوحة ، توفر على الدارســـين كثيرا ، لأنها تتيح لهم أرقى المضامين والوسائل التعليمية ، بل وأكثرها ابهارا ، وتجســـد هذه الوســـائل والمضامين على مدار اليوم ، دون أن تكبدهم عناء الزحام فى المواصـــلات والشـــوارع والمدرجات ، وعلى أهمية هذا الدور التليفزيونى فهو ليس ما يعنينا هنا ، لأن برامج المدارس والجامعـــات لم تعد الوسيلة المثلى لاستيعاب التراث الانسانى وتجاوزه ، ولأن ما يعنينا الى جوار حفز الناس العاديين (المتفرجين) هو أن هـــذا التراث ، وفى مختلف المجـــالات الفكرية والفنية والتقنية ، صار مجسدا بأشكال درامية ومعرفية مختلفة على شاشات التلفاز .

البرامـــج الذكيـــة :

وأى مصرى تتاح له متابعة محطة تليفزيونية ذكية لابد أن تزلزله البرامج الكثيرة التى تقدم جمـــاع المعـــارف البشرية ، والجيد منها لا يقتصر على عرض هذه المعارف ، وانما يقدم منطق تتابع اكتشافات هذه المعارف ، مما يصيب المتفرج بالعدوى ، ويربى قدراته الابتكارية .

وليس هذا فقط ما نعنيه ، لأن الأكثر أهمية أن البرامج التليفزيونية لم تقف عند هذه الخطوة الأولى الضرورية لكل

ابداع ، وهى الاستيعاب الجيد للتراث الانسانى ، بل سعت الى ان يتخذ بعض لعب وترفيه المتفرجين الوجهة نفسها ، فصارت هناك برامج جذابة تشجع الناس على النظر بصورة انتقادية للتراث الانسانى ، وعلى الاستفادة من هذا التراث وتجاوزه .

والمسألة ليست غريبة علينا تماما فقد أطلعنا على أطراف منها فى برامج خفيفة جديدة يقدمها تلفازنا ، لكن كثيرا من هذه البرامج ابتسر التوجه حتى أفرغه من أى قيمة تطورية حقيقية . وقد يتصور البعض أننا أخطأنا العنوان فهذه برامج منوعات فكاهية خفيفة . وحث الابداع والتفكير لابد أن يكون مسألة « بايخة ثقيلة الدم » يختص بها أفراد ثقيلوا ... لكن الهدف الأول من حديثنا ليس الا مثل هذه البرامج الخفيفة الدم والحضور ، لأنها هى التى تناسب طبيعة الابداع الحقيقية ، وليس أحوال متفرجينا فقط .

وجوهر الأمر هو أن بيت القصيد فى سعى الانسان وتقدمه له يعد تذكر الانسان للمعلومات المختلفة التى يجاب عليها بأدوات استفهام مثل من (اكتشف ، وفعل ، وقال ، و ..) ومتى وأين ، وانما صار هذا التقدم يرتبط بما يجاب عليه

بأدوات مثل لمــاذا (اكتشف ، وفعل ، و ٠٠٠) وكيف ، لأنها هى التى تحث على التفكير وتقود الى الابداع • وقد بتنــا نخلط كثيرا بين التذكر والتفــكير ، فحتى برنامج يتخذ من التفكير عنوانا له مثل « فكر ثوانى واكسب دقائق » (وغير هذا البرنامج كثير من البرامج على قنواتنا المتعددة) ، تدور معظم أسئلته ان لم تكن كلها بعيدا عن التفكير وتقف عند حدود التذكر •• ذلك أن التفكير هو استعمال ما يتعلمه وما يتذكره المرء للوصــول الى غاية من الغايات مثل حل المشــاكل التى تعترضــه و ٠٠٠

والتحلق والدوران حول أسئلة التذكر أمر عقيم بالذات عنــدما يقود مع الفهلوة الى « فلسفــة البرشــام » و « قيم البرشام » • ولأن ذلك يحط فى النهاية من قدر الانسان الذى وهبه الخالق نفحة من قدراته الخلاقة واستخلفه فى الأرض •• يحط من قدره ويسخطه الى « آلة متذكرة » هايفة أو متواضعة الامكانات والقدرات ، اذا قارناها بالأدوات التى صنعها الانسان نفسه لتســاعده على التذكر ، مثل القواميس والموســوعات وبنوك المعلومات و ٠٠٠ وهذا ما دفع الجديرين حقا بصفــة « من استخلفه الله فى الأرض » لأن يعلموا أولادهم طرق تحرير أمخاخهم من تذكر المعلومات حتى تتفرغ للتفكير والخلق •

وحتى لا يكون كلامنا عاما لا بأس من مثال للبرامج التى تستخدم فى حث قدرة المتفرجين الابتكارية • وهو ليس برنامجا خبريا كما أنه ليس تمثيلية يشترك فيها ممثلون رئيسيون وأصحاب أدوار ثانوية ، وان كان يعد وفق سيناريو « ويؤديه » فريق مكون من ستة أفراد يتميزون بالحيوية والثقة ومخاصمة الفهلوة ، اضافة الى سعة الأفق والاطلاع ، ويتيح التليفزيون للفريق أن يتبارى مع فرق شبيهة ومع الجمهور أمام شاشته ، فى لعبة تعد بروفة لعمل القدرات الابتكارية التى نحتاجها لمواجهة مشكلات الحياة •

يجلس الفريق حول مائدة مستدير وسطها روليت يحدد للفريق سؤالا بين أسئلة أختيرت من أسئلة أرسلها مشاهدوا التلفاز أنفسهم • ويكون على الفريق أن يجد بمجموعه اجابة عن السؤال خلال دقيقة واحدة أمام حكم يتدخل عند اللزوم ، ويفوز السائل بالجائزة ان أخفقوا بينما يفوز الفريق بنقطة فوز تحسب له فى نتائجه أمام الفرق الأخرى اذا نجح فى الاجابة •

قدرات التفكير الابداعى :

لكن لماذا يتكون الفريق من ستة لاعبين على وجه التحديد ؟ بتحليل الممارسة الابداعية الجماعية وجد أنها لابد أن تنطوى على :

ـ من يلعب دورا أساسيا فى تحليل المشكلة بنفاذية ، بحيث يمكن الوقوع على الجوانب الأساسية فيها .

ـ من يلعب دورا أساسيا فى القاء الأضواء المعرفية الصحيحة على هذه الجوانب بحيث يكون هناك تصور واضح وصحيح للمشكلة قبل البحث عن حلول لها .

ـ من يلعب دورا أساسيا فى توليد الأفكار والبحث عن البدائل والامكانات .

ـ من يلعب دورا أساسيا فى أبعاد التفاصيل وابراز النواقص والسلبيات فيما يطرح .

ـ من يلعب دورا أساسيا فى تحفيز ما يجرى ورؤية الجوانب الواعدة فيما يطرح ، ويدفع الى تطورها .

ـ مايسترو قادر محنك مسئول حازم يدير عملية التفكير ويتحكم فى معالجة ما يطرح من توجهات للوصول الى حلول .

وجد أن توفر هذه القدرات ضرورى لاتمام هجوم عقلى كفء ، فى أقل وقت لحل أية مشكلة ، وهكذا استقر الرأى على أن يتكون الفريق من ستة أفراد . وياحبذا أن برع كل منهم فى أداء احدى الوظائف السابقة لكنه ليس بالضرورة أن يظل شخص ما يقوم بالوظيفة نفسها ، فيمكن أن يكون لدى

هذا الشخص معلومات تؤهله لأن يلقى أضواء معرفية صحيحة على موضوع ما • وأن يكون لدى شخص آخر معلومات عن موضوع ثان ، تؤهله أن يلعب هذا الدور فيما يخصه •• ويمكن قول الشيء نفسه عمن يقوم بدور المايسترو أو الناقد أو ••• أى أنه يمكن لأفراد الفريق أن يتبادلوا الوظائف كما يحدث بين لاعبى كرة القدم فى الملعب ، وفق ما تطلبه كل مباراة أو فترة بعينها من المباراه •• فالمهم أن يؤدى الفريق كل وظائف التحليل والتفكير والانتقاد والابداع الجماعى معا بصورة متوازية ، وأن يتملكوا القدرة على الحوار الايجابى الفعال من أجل الوصول الى هدف مشترك •• وطبعا يبلغ الفريق القمة ان لعب على طريقة الكرة الشاملة التى يجيد كل لاعبى فريقها اللعب فى كل المراكز •

وبالطبع يلعب الحكم دورا ايجابيا فى المباراة • قد يسأل ان كان الفريق متأكدا من اجابته ، وقد يسأل ان كان الفريق يزيد التفكير مرة ثانية ان لم يكن استنفذ الوقت المحدد ، وقد يقرر زيادة هذا الوقت • وقد يقاطع ويجبر من يجيب على المباشرة ان حاول التلاعب فى الاجابة ، أو صياغتها فى غموض ، أو •••

كما أن الأمر يحتاج فى بعض الأحيان الى من يحلل للمشاهدين ماذار أمامهم بين لاعبى الفريق : كيف أن الخطوة

الأخيرة للتفكير المنطقى لم تسعفهم ؛ أو كيف أعاقهم الانفعال العاطفى عن تحقيق الهدف • أو كيف تقاعس صاحب الفكرة الصحيحة ـ أو مفتاح الحل الصحيح ـ خلال المناقشة عن تسلم دفة القيادة فخسر الفريق أو •••

لعبة التفكير :

ولعبة « التفكير للابداع » على هذا النحو لعبة حية مشوقة ، تشبه فى تكوينها من حيث كثافة المفاجأة الدرامية مباراة كرة القدم ، فلا أحد يعرف أى سؤال سيختار الروليت، ولا ماذا سيحدث خلال عملية التفكير الجماعية فى اللحظة التالية، وما هى الوجهة التى ستتخذها المسألة المطروحة ، لأن كل شىء يجرى « على عينك يا شاهد » أمام المتفرج : كيف تولد الفكرة وكيف تتخلق ، وهى دائما عملية مثيرة جدا ، لأن نطاق القضايا التى يمكن أن تطرح هائل •• ومع الزمن يمكن أن تتناول اللعبة كثيرا مما هو غامض ومثير وملغز فى الحياة ، مما يجب التفكير بصدده ، ذلك أن المتفرج هو الذى يرسل الأسئلة ، كما أنه لن يكون متفرجا فى حقيقة الأمر •• فعند متابعة مباراة لكرة القدم لا يستطيع المشاهد النزول الى الملعب والمشاركة فى اللعب ، ولكنه فى مثل هذه البرامج يستطيع أن يشارك بالفعل لأن العملية تحث المتفرج على التفكير مع الفريق،

وتطلعه على طريقة التفكير ، ويمكنه ابداء تعليقاته لمن حوله لحظيا ، أو فى بريد البرنامج لاحقا ، كما أن كون الجمهور هو صاحب الأسئلة يحمى مثل هذه المباريات من التغريب والابتعاد الى عوالم لا تهمه ، وقد تكون مقطوعة الصلة باحتياجاته وبالتالى بتطوره .

وتكمن الفائدة الجمة ، فى أن المرء لايمكن أن يكون عارفا بكل شىء ، وبالتالى لابد من طريقة للوصول الى ما لا نعرفه وتربية القدرات والخبرات التى تساعدنا فى الوصول الى ذلك ، لنجدها شبه جاهزة ، فى حالة لياقة معقولة ، عند مواجهة مشكلات حقيقية ، كما تكمن هذه الفائدة فى أن الذى يتعاون على اجابة السؤال فريق متكامل ، وهذه هى طبيعة السلوك المعاصر لمواجهة أعباء الحياة .

والطريف أن الشىء الرئيسى عند اختيار أفراد الفريق ليس القدرات التى سبقت الاشارة اليها ، أن أهم ما يراعى عند الاختيار يمكن أن نستشفه من الطريقة التى يجرى بها ، اذ يقف الأفراد فى حلقة حول شخص مغمض العينين يعرفون أنه سيسقط على الأرض خلال دقيقتين . والشخص الذى يرشح لدخول الفريق هو من يستطيع اللحاق به واقامته قبل السقوط . وقد لوحظ أن أفضل من يقوم بذلك غالبا ما ينجح فى ادارة الفريق

الصغير .. وبالطبع يعمل الفريق بعد ذلك على حث قدراته المختلفة ، وعلى التدريب المستمر ، وعلى ...

ورغم أن الأسئلة التى تطرح فى مثل هذه البرامج ستختلف من مجتمع الى آخر ، لأن الناس هم الذين يرسلونها ، الا أنه يمكن أن نضرب أمثلة من مجـالات متباعدة يمكن أن تجمل الصـورة .

* معروف أن السوائل تتحرك من المستوى الأعلى الى المستوى الأدنى . من فضلكم تناولوا أكواب الشاى الموجودة أمامكم ، وحاسبوا من سخونتها ، ثم أجيبوا عن السـؤال التالى : كيف يدخل الشاى فمك وهو أعلى من مستوى الكوب؟ وهل للسخونة دخل فى الأمر ؟

* كل منكم سافر بالقطـار أو المترو أو الترام .. عند الدوران يكون فرع القضيب الخارجى أطول من فرع القضيب الداخلى..كيف تعبر المركبة الدوران اذن ، رغم أن المحور بين كل عجلتين ثابت والمسافة بينهما لا تتغير (مما يعنى أنهما لابد أن يقطعا مسافة متساوية) .

* ما هو الشىء الذى يكبر كلما أخذنا منه ؟ (الحفرة ، العمر ...) .

ولن أخوض في الاجابة لأن الأمتع والأنفع هو كيفية الوصول اليها .. كيفية تنحية المشوشات وتحديد الفكرة الرئيسية و ... مع العلم ان المطلوب يكون كلاما منطقيا وعلميا سليما « لا تخر منه المياه » .

تبقى فى النهاية ملاحظتان الأولى أن هناك ألف سبب وسبب يقف وراء ضعف النتاج الابتكارى لمجتمع من المجتمعات .. وألف عائق وعائق تقف فى طريق أن تؤدى هذه المؤسسة المنوط بها حث الابتكار واستيعابه ، أن تؤدى وظيفتها ، لكن أهم هذه العقبات أن يشيع تصور أنها مؤسسات للصفوة لا تتصل بما يجرى فى المجتمع وفى عقول الناس حولها . وفى عصر الاتصال صار موجودا ذلك الطريق الملوكي ؛ الذى لايمكن أن يقارن به دور بيت أو مدرسة أو جامعة للتأثير فى طريق تفكير الناس ، وفى اعدادهم ليكونوا رافدا للطاقة الابتكارية للمجتمع .

أما الملاحظة الثانية فهى أنى لا أقترح دورى « التفكير والابتكار » بديلا عن دورى كرة القدم فأنا من محبيها ؛ ولا أشارك من يدينون ولع الجمهور بها رأيهم ، انطلاقا من هذا الحب الجماهيرى الجارف على مستوى العالم كله ، الأمر الذى لايمكن أن يكون خلوا من المعنى .

لكن حبى لكرة القدم لا يمنعنى ، وأنا أرى هـذا الولع والتقليد الواسـع للعبة مثل « بدون كلام » ، من التساؤل : أين الدورى العام لحفز التفكير والابتكار والابداع ؟ يا حبذا لو بدأ التليفزيون بفريقين ينتميان للأهلى والزمالك لعبة الابتكار التى فصلناها • آنئذ لن يطول الزمن حتى نجد اهتماما واسعا ، وفرقا كثيرة ، وربما دورى عام للتفكير والابتكار بالفعل ، لأنه ليس بالكرة وحدها يحيا الانسان •

الظـاهرة الادريسية الشفيقية

الايـدز القيمى وهـدر النبوغ

بالمرة ليس ما يهمنا من فصول الواقعة الادريسية الشفيقية، التى شهدتها حركتنا الثقافية يوما ، أى الرجلين سجل هدفا فى مرمى الآخر ، وتحت أى أضواء ، ووسط أى تصفيق .

وان كان يهمنا ألا تضيع عبثا جهود يقوم بها نابغ مثل أحمد شفيق ، والا تستهلك المعية نابغ مثل يوسف ادريس .. واذا كان ذلك يهمنا بدرجة فان ما يعنينافى الأساس هو كيفية حماية التجليات الابداعية الصحيحة لآلاف المبدعين والظروف التى تساعد على أن يرى المجتمع أصحابها ، ويحتضنهم ويقدرهم بصورة صحيحة ، ليخطو بهم وعلى أكتافهم ، الى آفاق العصر.

***

خلال جولة ليلية باحدى المدن الأوربية المعروفة بباع طويل فى التحضر فوجئت بكيان بشرى يضىء ويطفىء . وتبرق ثنيات جسده ، فى ايقاع متناغم (على طريقة الاعلانات الليلية فى المدن

الصاخبة) . وذلك عن طريق لمبات صغيرة ملونة ـ من ذلك النوع الذى يستخدم فى تزيين أشجار أعياد الميلاد ـ مثبتة فى ثنايا الجسد وعلى محيطه .

وحين دققت النظر فى الجسد المكهرب البارق هالنى الجمال الآسر ، ناهيك عن العود السمهرى لصاحبته ، ورغم أنى شكرت للأنغام الضـوئية ما أتاحته من فرصة للرؤية العابرة ، التى كانت ستفوتنى حتما ، فان الظاهرة شغلتنى حتى طرحتها خـلال حلقة درس فى علوم النفس ففاجأنى الحضـور بدراسة أحصت عدد الانطباعات والمعلومات التى يتعرض لها قاطن مدينة متوسطة الحجم خلال يومه ، واتضح انها تفوق بآلاف المرات الانطباعات والمعلومات التى كانت تعرض لآبائنا وأجدادنا (وربما أترابنا الحـاليين فى بعض القرى) .. والمهـم أن هـذا الفيض من المعلومات والانطباعات أدى الى اصابة الناس بالتخمة المعلوماتية، فصاروا يمرون مر الكرام « بمصادر المعلومات » !! دون أن يلتفتوا اليهم أو يروهم ومن هنا شاعت بين الناس فى المدن الأوربية الكبيرة ، التى يقابل الناس فيها بعضهم دون رؤيـة ، ظواهر تبدو غريبـة ، مثل ظاهرة الملابس البارقـة هـذه ، كاقبال الجنسين على اعلانات نوادى التعـارف (رغم ظروف السماح بل والاباحة) ، وعلى برامج محاضرات وأدبيات أصول

العلاقات الشخصية (أو البينشخصية) وكيفيـة لفت أنظـار الآخرين توطئة لكسب اهتمامهم وتقديرهم •

وأمر ظواهر من هذا النوع مفهوم فبين احتياجات الانسان الأساسية احتياج الى أن يراه ويقدره الآخرون •

ادريس وشفيق نابغان :

ولعل القارىء يسأل : لكن ما دخل ذلك كله بالظـاهرة الادريسية الشفيقية أو بالايدز القيمى وهدر النبوغ كما جـاء في عنوان هذه الدراسة ؟

وهنا استأذن القارىء فى أن أفرغ ابتداء من بديهتين ، الأولى هى ان يوسف ادريس أديب نابغ ارتبط اسـمه بتحويل مجرى القصة العربيـة القصيرة ، كما ساهمت « فرافيره » فى صنع زلزال ضرب كيان المسرح العربى ، فلم يسلم حتى يومنا هذا من الهزات الخلاقة •• والثانية هى ان الدكتور أحمد شفيق جراح وعالم نابغ ، على الرغم من بعد نتاج عمله عن الجمهور وذلك رغم « الصورة » التى رسمها له يوسف ادريس ، وما راح يضفيه عليه من « قدرات خارقة » على تكوين الجمعيات الطبية العالمية ، والانضمام الى هيئات رئاستها ، والالتحاق بأسرة تحرير المجلات الطبية ، ودفع الآخرين الى التنويه باسمه فى الكتب الطبية الأكاديميـة حتى تروج كتبهم •• وحتى الذهـاب الى

الرئيس موبوتو سيسكو واقناعه بقدرته على تقديم « مسرحية عالمية » عن دواء ثلايدز ، تذاع على العالم بالأقمار الصناعية ، لمجرد الاستهلاك المحلى فى زائير .. أقول حتى لو سلمنا بهـذا التصوير لقدرات أحمد شفيق ـ رغم أن وصفنا له بالنبوغ يرتكز على تجليـات صحية وصحيحة للنبوغ يتمتع بها الرجل فعلا ـ يمكننا فهم مدى امكانات الرجل وقدراته .

ولا أعتقد أن ظاهرة سمهرية العود المتلألئة تظل بعد ذلك على خصامها للظـاهرة الادريسية الشفيقية .. فان كان لدى الانسان العادى حاجة ـ يمكن أن يمرض لو لم تلب ـ الى أن يراه الآخرون ويقـدروه ، فما بالنا بحاجـة ملكات الجمـال والنوابغ على اختلاف أنواعهم ؟

وهذه الحاجة من الظواهر الصحية التى تفيد المجتمع ، ناهيـك عن النابغ . فى ظروف تتبنى بدرجة معقولة منظومة قيم (وقيمة) تحتفى بالعلم والعمل ومكارم الأخلاق ، اذ تجعل من الشوفان والتقدير ، والسعى الى الشوفان والتقدير الأكبر ، حافزا ودافعا للتقـدم ، لكن المشـكلة ـ فى اتصـال بهذه الحاجة ـ يمـكن أن تحدث اذا صـارت الشيكات أنفع من الدرجـات العلميـة ومن النبوغ الأدبى ، ولم تعد المؤلفـات والأبحاث هى مصدر الأرصدة فى البنوك ، أو على صفحـات

الاعلام ، ذلك ان حاجة النابغ الى الشـوفان والتقدير ، وسعيه اليهما ، يمكن أن يقوداه الى استعراضية مقيته ، ناهيك عن احتمالات ضياع أعمال النبوغ الحقيقى وسط أعمال الرواج مهما كان تهافتها •• وحتى لا يبدو الكلام ضربا من التعميم لا بأس من بعض التفصيل •

الهجوم الدماغى والابداعى :

لقد قنن العلم خلال نصف القرن الأخير طريقة تستخدم فى التوصل الى حل للمشاكل العويصـة عن طريق جمع أكبر عدد من الأفـكار المبتدعة ، دون تمحيص ، لمجموعة مختـارة من الناس •• وهى طريقة راقية يحاول بها الانسان أن يتجـاوز عوائق تأطير التفكير ومنهجته ، ذلك انه يكاد يكون لكل مشكلة يواجهها الانسـان ، فى عصر القضايا المتداخلة والمتشابـكة ، اطارها الخـاص ومنهجها الخاص •• ولهذا صـار الهجـوم أو العصـف الدماغى (brain storming) يستخدم بصـورة مكثفة لحث الابداع فى كافة المجالات •

ويوسف ادريس يفكر بطريقة تشبه هذه الطريقة التى أظن أن نتاجها يحلق الى ذرى عالية ـ حين يقوم عليهـا واحـد وحده ـ فى مجال النتاج الأدبى ، ذلك أن جوهرها هو ادراك الحقيقة فى تشابكهـا بعيدا عن المناهج والأطارات الجـاهزة

والجامدة . ومن هنا نتاج يوسف ادريس الابداعى السامق ..
من « أرخص ليـالى » وحتى « العتب على النظـر » ، مرورا
بالحرام والآى آى والفرافير ومسحوق الهمس وبيت من لحم .

لكن نتاج هذا الأسلوب فى التفكير يحتاج بعد الاجتياح
الأول الى موجات متتالية من التمحيص والاختبار على محكات
مختلفة ، وفى حالة النتـاج الأدبى ، الذاتى بالضرورة يكون
النـاتج أقرب الى دائـرة الابداع الحقيقى كلمـا اقتصرت
المراجعات على بناء العمل ونسيجه .. ذلك بينما تتهدد نتـاج
تمحيص الهجوم الدماغى ، مطبقا على القضايا العامة ، بنفس
أسلوب الأديب ، مزالق كثيرة .. ولا بأس من استشراف آفاق
هذه المزالق من مثالنا التطبيقى ، ولا بأس من أن تكون بدايتنا
مع معـارف مرض نقص المنـاعة المكتسبة « الايدز » المحور
أو الشرارة التى فجرت الواقعة .

لقد كتب يوسـف ادريس فى اطار هجومـه الدماغى :
« يقول الدكتور ــ المقصـود هو أحمـد شفيق ــ انه جرب
الدواء على الحيوانات ، معنى هذا ان هذه الحيوانات لابد قد
حقنهـا بفـيروس الايدز » .. ولسـت أدرى من أين جـاء
يوسـف ادريس بهـذا الاسـتنتاج القطعى فليس من الضرورى
أن تكون التجـارب (وحتى العـلاج) على فيروس الايدز ،

فقد اعتمدت لجنة صناعة الدواء السوفييتيه (وهى لجنة علمية على مستوى الدولة) استخدام عقار كان قد صنع أساسا لعلاج الانفلونزا (وهى مرض فيروسى) لمكافحة الايدز، وذلك فى اطار سياسات علاجية عالمية تعتمد على استخدام منبهات جهاز المناعة ، مثل الانترفيرون وغير الانترفيرون •

هذا كما ذهب يوسف ادريس الى « ان المشكلة فى مرض الايدز مشكلة خطيرة جدا ، بل تتعلق بأصل نشأة الحياة على ظهر الأرض ، مثلها مثل السرطان •• وعاد يؤكد بعد سطور : « المشكلة معقدة جدا ، ولن تحل الا بحل ذلك الطلسم ، كيف تبرمج الجزيئات الحية من ميكروب الايدز نفسها وتعيد برمجة نفسها وهذا لايمكن أن يكتشف الا باكتشاف كيف تتحول البروتينيات الغادية الى بروتينات حية ، وتلك هى معضلة العلم ، أو كما يقولون كشف سر الحياة ، المسألة ليست سهلة أبدا » •

وقد يكون صحيحا أن نقول ان الوقت مازال مبكرا لاكتشاف دواء لعلاج الايدز علاجا كاملا ، أو ان نقول لهذا الدواء أو ذاك « لا » •• لكنها مبالغة أدبية معوقة (وربما تنصل من المسئولية) ان نقول ان اكتشاف دواء الايدز غير ممكن دون اكتشاف سر الحياة ، بالذات وتغيير كل الفيروسات

« لأغلقتها » من المسلمات التى لم تمنع من الكد فى البحث عن علاج لها .

ويمضى يوسف ادريس فى هجومه : « ان أمريكا تنفق أكثر من ثلاثين مليار دولار على أبحاث السرطان وعشرات المليارات على أبحاث الايدز ، وأبحاث الايدز لا يقوم بها الأطباء فقط وانما تشترك فيها أقسام بأكملها من علماء الوراثة وعلماء الهندسة الوراثية .. كل هذه المعامل والعلماء يستطيع النابغة أحمد شفيق وهو جالس فى عيادته الفاخرة فى القاهرة ان يلغى علمهم وعلومهم وأبحاثهم بجرة قلم وان يتفتق ذهنه عن علاج شامل ناجح لمرض الايدز » .

ولعله من المناسب هنا الاشارة الى اننى قد اخترت توصيف أسلوب تفكير يوسف ادريس بصورة تقريبية (يشبه الهجوم الدماغى) عن قصد ، لكى ابين — على نفس الأسلوب — المأزق الذى يواجهه أحمد شفيق ، وكل أحمد شفيق .. لقد برز هذا الأسلوب الابداعى مع مرحلة التشابك البالغ الذى دخلته معارف البشرية ، مما ضيق كثيرا — ولا أقول الغى — من فرصة الفرد فى الابداع العلمى (بل والفنى : المسرح والسينما والتليفزيون) اذ صار الابداع ليس عملا جماعيا فقط ، وانما لا ناس مختلفى الوجهات المعرفية أيضا .

وكان يمكن الاتفاق مع يوسف ادريس فى قوله السابق لولا ما ذكره حول انفاق أمريكا مليارات الدولارات .. ذلك أن هناك مجموعات علمية تحقق انجازات كبيرة بصرف النظر عن هـذه المليارات ، ولولا ما ذهب اليه ساخرا من قـدرة النابغـة أحمد شفيق ان يلغى عملهم .. (ما وجه الالغـاء يا ترى) .. لقد استغل يوسـف ادريس مبالغة وقع فيهـا أحمد شفيق فعلا سنفصـل الحديث عنها بعد قليـل .. لكن الصواب لم يحالفه ، كما هى الحال بالنسبة للسقطة التى جره الهجـوم الدماغى اليها حين كتب : « ان من المؤلم تماما أن يحدث هذا كله دون أن تتحرك وزارة الصحة بل ووزارة الداخلية للتحقيق مع الدكتور أحمد شفيق ولو على الأقل بتهمة دخول الأراضى المصرية بعد أن عاش فى منطقة موبوءة بالايدز »..ذلك انه يفوت يوسف ادريس هنا ان عالم اليوم صار عالمـا مفتوحا، وأن كثـيرا من المصريين يذهبون كل يوم الى مناطق موبوءة وان حدودنا ليست استثنـاء من هـذا الانفتـاح العـالمى ، ويدخلها يوميا آلاف الناس ، بينهم الأفاقون والعابثون ، ممن لا يستبعد أن يكونوا قد احتكوا بمرض الايدز هنا أو هناك.. فلماذا يا ترى تحقق وزارة الداخلية !!! مع أحمد شفيق بالذات، وربما كان احتمـال الاصـابة بالنسبة للأخرين أكثر مما هو قائم بالنسبة له !!!

القضية أكبر من معارف الايدز :

لكن ليت المسألة فى الواقعة الادريسية الشفيقية تقف عندما يخص معارف الأيدز وحدها •• وتكفى نظرة الى ما أثير حول عملية زرع المثانة ودواء الروماتويد لايضاح ذلك فيوسف ادريس كتب ان الدكتور شفيق « ارتكب جريمة اقتلاع مثانة انسان ميت واستأصل مثانة مريض حى وركب المثانة التى كانت خلاياها قد ماتت ، وطبعا حدث التقيح ومات المريض •• وتشكل مجلس تأديب ، وكان رأى المجلس فصل ذلك الطبيب وهى أقل عقوبة ممكنة لقتل مريض عن عمد •• ولكن هكذا نحن المصريين قالوا : انه شاب وانه فى مستهل حياته واكتفوا بالخصم والانذار » •

ذلك بينما يرد أحمد شفيق (صباح الخير ٧/٢١) « أنا أول انسان يقوم بزرع المثانة لمريض سرطان بعد انتزاع مثانته ، وفعلا أجرى معى تحقيق وكانت النتيجة مشرفة •• لقد أثبت التحقيق انى أضفت الى تاريخ العلم عملية زرع المثانة فالتحقيق المشار اليه كان وساما أعتز به ولبس عقابا •• » •

وفيما يخص دواء مرض الروماتويد كتب أحمد شفيق (الأهرام ١/٢٥) لقد جاء فى نتيجة مجلس تحقيق جامعة القاهرة ــ وقد استمر التحقيق سنتين كاملتين ــ الصادر فى

١٥ ابريل ٨٧ : « قرر المجلس براءة د. أحمد شفيق مما نسب اليه » .

وذكرت الحيثيات أن اللجنة التنفيذية لدواء الروماتويد المشكلة بناء على قرار اللجنة العليا للادوية فى جلستها (٨٥/٣/١١) برئاسة رئيس هيئة الادوية انتهت الى ايجابية مرحلة الأبحاث قبل الاكلينيكية التى أجريت على الدواء .. وتوصلت اللجنة البحثية التنفيذية ، برئاسة أ. د. محمود درويش نائب رئيس جامعة القاهرة وعميد كلية الصيدلة فى حينه، والتى تضم أساتذة من كليات الطب والصيدلة ، والمركز القومى للبحوث وبعد أبحاث سنتين كاملتين ان الدواء له أثر مضاد للروماتويد ، وأثر مانع للالتهابات وليست له أية آثار جانبية .. وينكص يوسف ادريس بعد النتيجة التى ذكرها د. أحمد شفيق وينشر ملخصا لمحضر اجتماع ، جاء فى بداية التحقيقات السالفة الذكر ، وفى المحضر ما فيه ، مما يستشهد به يوسف ادريس على هروب أحمد شفيق من مواجهة العلماء .

والمسألة هنا ليست فى جدوى أو عدم جدوى دواء الروماتويد وليست فى الخلاف حول صحة عملية زرع المثانة فى حد ذاتها .. ذلك انها تطول هيبة ومصداقية وحول وطول ومنطق الجامعة والمؤسسات العلمية ، بل والعلماء المصريين

جميعا .. فان كان أعظم عمداء كليـــة الطب ، على حد تعبير يوسف ادريس ، قد أوقف د. أحمد شفيق يوما عن العمـــل ، فلماذا أعاده وحال الدواء كما يذكر يوسف ادريس ؟ وهل يمكن التعويل على كلام « عالم » يقول فى طبيب قتل مريضا ــ وفق اعتقاده ــ « انه شـــاب فى بداية حياته .. » ، أو على سيول « القيل والقال » مع اختلاف مشارب وأهواء مصادرها .

الخلل فى دنيـــا الكتابة :

ومع الأسف لا يقف الأمر عند حدود المؤسسات العلميـــة فالمعالجة الصحفية للموضـــوع تكشف عن قضايا جديدة .. واذا ما تخطينا ما كتبه يوسف ادريس من ان « نقرا من أطبائنا دأبوا على أن يكون لكل منهم رجله أو سيدته فى هـــذه المجلة أو تلك ، فى هـــذه القناة أو تلك يوالى نشر أخباره ، بنقوده مرة أو بدون نقود ، بتوصية على الابن أو البنت مرة الطالبة فى كلية الطب أو جبر المحروس أو المحروسة » .. اذا ما تخطينا ذلك من أمور ليست ســـــوى تنـــاج للايدز القيمى (الذى سنتحدث عنه لاحقا) الى مسائل أكثر التصاقا بمهنة الصحافة، كان لابد من أن يثور أمامنا سؤال عن الملابسات التى جعلت أحدا من الصحفيين الذين تحاوروا مع أحمد شفيق على كثرتهم لا يتطرق الى سؤال واحد يمكن أن يكشف عن أبعاد ما فعله أحمد شفيق :

ـ على أى فيروس تمت مرحلة الأبحاث ؟

ـ ما اجراءات الوصول الى دواء جديد وما هى امادها ؟

ـ ما فترة الحضانة لفيروس الايدز ؟ وعلى مصابين فى أى طور جرت التجار ب؟

ـ ما آجال عيش المصابين ، وهل يمكن أن يعود الفيروس الى الكمون بعد فترة من النشاط ؟ وما آجال هـذا الكمون وما علاقة ذلك ، بآجال أى اختبار كلينيكى للدواء ؟ ..

كيف تجاوز الجميع مثل هذه الأسئلة واكتفوا بما يشبه تفريغ شريط أو بيان عن أمجاد أحمد شفيق فى الموسـوعات والكتب العالمية والمؤتمرات الصحفية ، متخطين الشق الأساسى الذى يجب أن يوضحوه للناس ، عند الحديث عن « اكتشاف » علاج لمرضى الايدز .

هذا بل ان محاور مدرسة « يقود الحوار الصحفى بعفوية، وحتى يحصـل بعفوية مطلقـة على الاجابة غـير المصنوعـة أو الجاهزة » .. هذا بل ان محاور مدرسـة مثل مفيد فوزى جلس كالتلميذ المطيع يسجل ما يقوله أحمد شفيق ناسيا أبجديات الحوار ، ناهيك عن سجايا التحقيق الدرامى ، بما يمكن أن يكشف عنه من وجوه مختلفة للقضية المطروحة .

ان ذلك كله يكشف عددا من القضايا التى يجب الوقوف عندهـا .

اعداد الصحفي وصناعة القيم :

ولا يقتصر الدرس المستفاد على انه لا يكفي الاعتماد على المتخصص مهما علت مرتبته وتحول الصحفي الى آلة تسجيل .. اذ لا يمكن أن يؤتمن المرء على الوظيفة الاعلامية (وهي رسالة ومسئولية في الأساس) دون حس وضمير نقديين ، يعالج من خلالهما ما ينقله للقراء ، ولا يمكن أن يكون لديه حس نقدي دون المام بالمجال الذي يدور الحديث عنه .. ولا يقتصر الأمر على تهافت معتقدات شائعة بأن عمل الصحفي يمكن أن يكون مجرد نقل (وليس تمحيص) مزيد من المعلومات أو تفاصيل أي خبر تطالعهم به الصحف ، ولا على تأكيد التصورات التي ترى ان حرية الصحافة أمر لايمكن فصله عن المسئولية القائمة على المعرفة .

هذا كما لا يقف الأمر عند أزمة التصورات التي لم تستوعب ما يفرضه العصر من تغيرات في تكوين الصحفي الذي يكتب في مجالات العلوم ، ذلك انه يمتد الى أزمة الأعداد العلمي للصحفي (أي صحفي) في مصر .. فمهما أجدنا في تدريبه على وسائل التوصيل في كليه الاعلام ، التي تقبل طلابها بعد الثانوية العامة — وهؤلاء هم القطاع الأساسي الذي يرفد به جيش الصحفيين — لايمكن أن يؤدي الخريج وظيفته على نحو سليم ، لأن الحس النقدي الواجب أن ينظر

به الى أى كلام كان ، لايمكن ان يتربى على نحو صحيح الا من خلال معـارف منهجية ، ولسنا هنا بصدد بدعة جديدة فصدق الامام الشافعى الذى قال : « مثل الذى يطلب العلم جزافا ، كمثل حاطب ليل يقطع حزمة حطب فيحملها ، ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدرى » .

ومن القضايا الصحفية الأخرى التى تثيرها هذه الواقعة موقف الصحافة المصرية من انجـازات المصريين ، والقضـية هنا وجهان الأول يكشف عنه المنزلق الخطر الذى تؤدى اليه المبالغة فى الاحتفاء ببعض الانجازات بدعوى مصريتها ، والثانى يمكن أن أصفه مجازاً بـ « صورة الغلاف الغائبة » ، كناية عن شحة احتفاء الاعـلام بقطاعات مختلفـة من النابغين .. فمع منظومة القيم المغلوطة انكمش كثيرا حجم الاحتفاء بانجـازات العلم والعمل ومكارم الأخلاق .. والصحافة تضرب بذلك فى الصميم الدور الذى يجب أن تلعبه فى صياغة منظومة القيم والقيمة فى المجتمع ، حين تنقاد وراء مقولات الجمهور « عاوز فضايح ومغنى وكورة » .

والنتيجة المنطقية لكل ما سبق هى غياب الرأى العـام القادر على التقويم : فعلى سبيل المثال كان تولستوى يرى أن شكسبير كاتب من الدرجة الثالثة .. وهـذا أمر يمكن فهمـه واستيعابه ، فى اطار ظاهرة عدم صبر النوابغ الواحد منهم على

الآخر .. لكن الأهم ان رأى تولستوى لم يقلل من القامة العبقرية لشكسبير ، فى نظر الجمهور الواعى بالقضية المطروحة .. ذلك أن هناك رأيا عاما يملك مقومات الحكم على هذا وذاك ، ولا يخيل عليه ايما تهويش كان .

وتبقى النتيجة غاية فى الخطورة ذلك أن الرأى العام (لا البلاغات البوليسية التى تختلف مشارب مصادرها حتى للنقابات المهنية) يجب أن يكون صمام الأمان الذى يحكم تقدم المجتمع ، اذا سلمنا بأنه لا سبيل الى تقدم حقيقى دون أن يكون تقدما ديمقراطيا .. وذلك بالاضافة الى تهافت دوار الصحافة ، بصفتها وسيلة من وسائل الشوفان والتقدير ، فى صنع منظومة القيم التى تحكم المجتمع .

قد يسأل القارىء : « لكن ما الضير فى أن يكتب يوسف ادريس ما كتبه ، بأسلوب التفكير الذى يريد ، أن كان للقضية المطروحة كل هذه الأبعاد » .

وهنا نكون قد أتينا الى الحلقة الأساسية فى سلسلة المزالق التى يجر اليها تمحيص نتاج الهجوم الدماغى ، مطبقا على القضايا العامة ، بنفس أسلوب الأديب ، ولا بأس هنا من نظرة على ما أسفرت عنه الواقعة المترامية الأبعاد .

لقد جرى فى الحصيلة النهائية اغفال كل الأبعاد التى أشرنا اليها ، التى لم يثر معظمها أصلا ، وجرى التركيز على

شخص أحمد شفيق وتصرفاته .. ولنتصور مجرد تصور أن أحمد شفيق (أو غيره من المبدعين) اتبع الأسلوب الذى طالب يوسف ادريس الباحث أن يتبعه : « يستأذن فى تجاربه واذا نجحت يعرض النتائج على مجلس القسم الذى يعمل فيه ، فاذا أقرها رفعها الى مجلس الكلية ، ثم مجلس الجامعة ، ويصرح له بعد ذلك بنشرها فى الدوريات العلمية ، حتى يضع اكتشافاته أمام أنظار كل علماء الدنيا » .

لعل يوسف ادريس نفسه كان سيدرك لو عاود النظر فيما قال عقم الأسلوب البيروقراطى الذى يطالب الباحث بان يتبعه .. وربما كان من المفيد هنا الاشارة ، بعيدا عن ظروف البيروقراطية المصريه ، الى تطور يفرض نفسه على طبيعة البحث العلمى فى السنوات الأخيرة فوسط المباراة الشرسة التى فرضت نفسها فى هذا المجال (سعيا الى كسب السوق العالمية أساسا) تزايدت ظاهرة تأسيس جماعات بحثية ، تتخصص فى تطوير وانجاز ما يطلب منها ، من خلال عمل متكامل ، تجند له فرقا متكاملة ، مجهزة بأحدث أساليب التفكير الابداعى وحثه ، وتعمل الواحدة منها بنظام ٨٠ ساعة أسبوعيا ، حتى تنتهى من بحثها .. وظهور مثل هذه المؤسسات بات يضفى على حركة البحث العلمى دينامية هائلة تضع فى حرج بالغ أكبر ادارات البحث العلمى فى أضخم المؤسسات العالمية .

لكن لعل المغالطة الأساسية فى واقعتنا ذات الأبعاد الهائلة أن يبدو يوسف ادريس مزهوا وهو يزف للمراء نبأ تحرك نقابة الاطباء واصدارها قرارا « باستدعاء د. أحمد شفيق للتحقيق معه ، وكأن الممارسة الطبيــة المصرية ليس فيها الا تجــاوزات د. أحمد شفيق بشأن سلوكه المدعى » به وهو ترويج أحلام يقظته فى دنيا الاكتشافات العلميــة ، على انها حقيقة ثابتــه مؤكدة .. ثم عودته الى الاحتفاء بـ « نقابة الأطباء لسعيها الى احكام قبضتها على أخلاقيات مزاولة مهنة الطب فى ظل الفوضى الأخلاقية والذمية التى نحيا فيها .. فالعمل عظيم وجــاد وآن آوانه بعد ما كاد يفلت الزمام » .

الايـدز القيمـى :

هكذا تلخص البحر من خــلال عين النورس فى شخص أحمد شفيق ، وهكذا كانت النتيجــة الهزيلة التى صفق لها يوسف ادريس وصورها على انها النصر المؤزز .

وليت الأمر يقف ـــ وأنا هنا أستعير كلام يوسف ادريس نفسه فى مجال آخر ـــ عند كون : « أحكامنا ليست صادرة عن روية أو تفكير انما هى على الدوام أحكام (انفعالية) بنت اللحظة .. أى ردود أفعال وليست أبدا نتيجة موازنة ثم اتخاذ موقف » .. أقول ليت الأمر يقف عند هــذا الحد والا لمــا استحق هذه الوقفة المسهبة .. ذلك ان الواقعــة تكشف عن

مرض عضـال يضرب الأمة فى أعز ما تملكه .. (التفـكير الابداعى الذى لا أمل لها فى الخروج من مشاكلها بدونه) وهذا ما يدعو الى جهد اضافى للكشف عن بيت الداء .. وهنا نكون قد درنا دورتنا وعدنا مرة أخرى الى الحاجة الى الشـوفان والتقدير ، التى تشوههـا منظومة قيم مغلوطة فتدفع بنابغين حقيقيين الى هدر نبوغهم .

لقد دفعت الحاجة الى الشوفان والتقدير أحمد شفيق الى المبالغة : فى تصوير محاولته فى البحث عن دواء للايدز وتمادى فى الحديث (الاعـلان) عنها ، على انها اكتشاف علاج لمرض الايدز .. وتلقف يوسف ادريس المبالغة ليحولها ، مدفوعا بنفس الحاجة ، الى حادثة من حوادث النصب الفاضحة ، التى تتيح منظومة القيم المغلوطة لمكتشفهـا (وفى غياب رأى عام علمى يعتد به) تقديرا يفوق أى تقدير يمكن أن يحظى به لانجـاز أدبى حقيقى ونابغ .. وبين أمثال مبالغة أحمد شفيق واستهلاك يوسف ادريس لألمعيته فيما لا يجدى نابغة مثله يفقد المجتمع ما هو أكبر بكثير من تبديد نابغين امكاناتهما فى الاستفادة من نواقص الواقع (بدلا من مواجهتها) .

ان بيت الداء هو منظومة القيم (والتيمة) المغلوطة التى تدفع مع ردود فعل « النابغين » الى ما اطلقنا عليه الظـاهرة « الادريسية الشفيقية » ذلك ان المسألة لا تخص ولا تقتصر على

ادريس وشفيق وحدهما ، فهى تظل دنيا الأبداع وتكبل فعل النبوغ ، وترهقه بأثقال وأمراض لابد من أن تقتله فى نهاية المطاف .

بقى من الضرورى التأكيد مرة أخرى على أن ما عنانى وتناولته فيما يخص « الظاهرة الادريسية الشفيقية الايدزية النوبلية » ليس مدى مبالغة أحمد شفيق ، ولا مدى الجانب الذاتى فى هجوم يوسف ادريس ، ولا تهافت كبار نوابغنا على الفوز بجائزة نوبل فى اطار السعى الى أن يراهم الآخرون ، ولا الحقائق الخاصة بمرض الايدز ، ولا الخلط الذى يسود دنيا الكتابة .. لأن ما يعنينا حقا هو « الايدز القيمى » الذى يشل جهاز حماية القيم الصحيحة فى المجتمع فيصبح جسده نهبا لكل « قيمة » مريضة تعمل على هدر النبوغ ، ذلك ان الخاسر الأول والأخير مع هذا « الايدز القيمى » ، فى كل مظاهره وتجلياته ، هو المجتمع الذى أثبتت مختلف التجارب انه لن يكون قادرا على تجاوز مشاكله دون ابداع حقيقى من أبنائه .

ان أقصى ما يمكن أن نصيبه فى اطار المعالجات « الانفعالية » هو عرض من آلاف الاعراض ، شتان بينه وبين مواجهة المرض .. شتان بينه وبين منظومة قيم راسخة تحتفى بالعلم والعمل ومكارم الأخلاق ، وتساعد على تحريك الابداع ، وفتح طريق النبوغ الذى تهدده الأفخاخ من كل جانب .

الظاهرة البازية الزويلية اليعقوبيه

هل تربى مصر علماء للدول المتقدمة ؟ !

تعودنا أن نفاخر بأبناء مصر الذين ينجحون فى الخارج ، والاقتصار على الافتخار بأن واحدا منا قد أثبت قدراته بين « الخواجات » يعكس شعورا بالدنية ، فمما لا جدال فيه أن الله لم يخلقنا كبشر بقدرات وراثية أقل من قدرات الخواجات ، فمورثاتنا تنحدر من قدماء المصريين ، وما أدراكم من هم قدماء المصريين .

ومن هنا يستحق الأمر نوعا آخر من المعالجة ، تحاول أن تمحص الظاهرة البازية اليعقوبية من حيث صالح مصر والمصريين .

***

راح الرجل يبحث عن مستشفى عالمى لعلاج قلبه العليل ، ودلوه على مستشفى كليفلاند ، الذى يذهب اليه الملوك والرؤساء وأصحاب الملايين ليس فقط لروعته ، بل لأنه مستشفى

له عرافة سبعين عاما من السمعة الطيبة والانجازات العلمية .
وهناك توجيء بكوكبة من الأطباء المصريين اللامعين .. الدكتور فوزى اسطفانوس رئيس قسم التخدير ، والدكتور روبير فوزى المتخصص فى أبحـاث ضغط الدم ، والدكتورة فطنت فؤاد ، المتخصصة فى دراسة العلاقة بين ضغط الدم وجراحات القلب ، ومعهم الدكاترة ميشيل غطاس وعمرو المهدى ومجدى سيدهم.. بل ورأى أن المصريين يكادون يحتكرون أحد أقسام المستشفى وهو قسم التخـديرِ ، حيث كانت تعمل بالقسم مجموعة من دفعة واحدة من طب عين شمس ، تضـم الدكاترة كمال برسوم وكمـال أبادير وفكرى عزيز ، ويرأسـها الدكتور نبيل مالك ، والطريف أنه وجد كبار الأطباء يحدثونه عن فضـل الأطبـاء المصريين على تطور التخدير فى الولايات المتحدة كلها وليس فى كليفلاند فقط ، فدراسات الفريق المصرى فى هـذا الميدان جعلت أبحاث التخدير عدوى تسرى الى كل المراكز الطبية والعلمية ، كمـا أن المصريين يدعون الى القاء المحـاضرات فى كل المدن الأمريكية و ....

مصر خرجت ٢٠٠٠ مهندس نووى !

ومثال كليفلاند ليس فريدا من نوعه فنحن نعرف تكرارات أكثر دويا ، فليس بيننا من لم يسمع حكايات مجدى يعقوب وذهنى فراج و .. فى المملكة المتحدة مثلا . وقد اخترنا مجال

الطب لأنه المجـال الاقرب الى اهتمام أناس العاديين ، لكن الامر لا يقتصر عليه وحده ، فعلى سـبيل المثال سـال الدكتور ابراهيم بدران رئيس اكاديميه البحث العلمي ، في حينه ، الخبراء الاجانب ان يدلوه على اسماء عدد من خبراء الليزر في العالم ، وكان أن ضحكت معظم من سالهم ، لان احمد زويل كان واحدا من أكبر خبراء الليزر في العـالم ولم تكن أكاديميه البحث العلمى المصرية تعرف عنه شيئا .. وفى مختلف المجالات هنـاك حكايات مدوية مثل حكايات فاروق الباز وعصـام معروف ، العالمـان المصريان اللذان يعملان فى مجال الأنشطة الفضائية الأمريكية ، والدكتور عزت عبد العزيز والدكتور يحيى المشد في مجال الطاقة النووية ، و .. ، والذى يهمنا أن هذه الحكايات ليست الا قمة جبل الثلج الظاهرة فوق مياه المحيط ، وإذا نرى أينما شرعنا البصر في جوانب العالم الأربعة أبناء نابغين لمصر ، يمكن أن تتصور الحجم الحقيقي لهم اذا تتبعنا أحد الأمثلة من المنبع .

فى هندسة الاسكندرية مثلا قسما للهندسة النووية يعمل منذ أكثر من ٣٠ سنة ، تخرج فيه ما يزيد على ٢٠٠٠ مهـندس ـ علاوة على المتخصصين فى هذا المجال من خريجى الكليات الأخرى كالعلوم مثلا ـ ونصيب تخصصهم في المجالات التطبيقية واه للغاية ، فأين تراهم ، وهم من صفوة العقول المصرية ، ذهبوا يا ترى ؟

والغريب أننا مع ذلك نفتقر افتقارا يكاد يكون تاما لاعداد الكوادر الفنية الوسيطة فى هذا المجال ـ كما فى مجالات كثيرة غيره ـ الذين لايمكن قيام قائمة للعمل بدونهم ، حتى ليبدو أمر تعليم وتخريج هذا الكم من أصحاب الدرجات العلمية العالية ، وكأنه اعداد لقاعدة من الكوادر تختار منها البلدان الأخرى احتياجاتها ، ذلك ان لم يكن الهدف هو الهدر لطاقاتنا التعليمية .

لماذا لا يعود المصرى ؟

وما يسرى على قسم الهندسة النووية يسرى على أقسام الكمبيوتر ـ وما يشابهما من أقسام ـ وبعضها يعمل فى مؤسساتنا التعليمية منذ أكثر من ثلاثين سنة . وقد يتصور البعض أن قيام هذه الاقسام ارتبط بمرحلة معينة جاوزت فيها أحلامنا القومية قدراتنا ، أو أنها ترتبط بفروع بعينها لها طبيعتها الخاصة ، وأن الأمر آخذ فى التغير .. لكن هذا ليس صحيحا .

فخلال واحدة من الزيارات الأولى للدكتور زويل لمصر وما صاحبها من ضجة اعلامية ليزرية سئل الرجل ان كان بالامكان أن يلتحق عدد من المصريين بمعهده فى كاليفورنيا ، حتى تكون لمصر كوادرها فى مجال الليزر ، فأجاب للتو ان هذا ليس الحل ،

ذلك أن من سيتدرب هنـاك لن يعود الى مصر ، وسيبقى فى الولايات المتحدة ، أو يبحث عن عمل فى البلدان الأوربية • وأوضح أن بقائهم فى مصر يحتـاج لأن تكون هنـاك قاعدة تقنيـة تستوعب جهودهم ، وقادرة على الاستـمرار الذاتى ، فلا تتوقف ــ فى انتظـار الفرج ــ حين يحـدث عطل لأحد أجهزتها ، وأن تتغير سياسة وطبيعة تمويل الأبحاث ، بحيث تلبى احتياجات حقيقية يقتنع القائمين عليها بتمويل هذه الأبحـاث ، وأنه لابد من قاعدة علميـة وتكنولوجية عريضـة تعتمد على تحصيل مستوى متقدم من الرياضيات والطبيعة والبيولوجيا ، ولابد من قاعدة متكاملة من العلوم تبرز عليها الانجازات الحديثة مثل انجازت الليزر أو الكمبيوتر •• ولايمكن بناء قاعدة ليزر فى الصحراء خلال اسبوعين ، والأعداد الكبيرة فى الجامعـة المصرية مثلا تمنع التركيز والدرس بالصورة الواجبة •• من دون ذلك كله فلماذا سيعود المصرى ، ان لم يكن قد قرر الاهتمـام بأشياء أخرى غير التى أعد نفسه علميا للقيام بها •

والغريب أن محاولة لانشاء مثل هـذه القاعدة العلمية التقنية المتكاملة كما تتمثل فى « مدينة مبارك للعلوم » مثـلا عرضة للمأزق نفسه ، فارسال البعثـات واحدة من الخطوات الأولى للمدينة ، وقد أبدت ايطاليا استعدادها لايفاد العديد من

الدارسين والباحثين للحصــول على درجـات الدكتوراه فى شتى نواحى العلوم ، كما أن الحكومه الالمـانيه خصصت حوالى ٣٠ منحة دكتوراه تتجدد سنويا فى شتى التخصصات العلميــة للمدينة .. ويمكن الحصول على كثير من البعثات من مصــادر اخرى ، لكن المبرزين فى هذه البعثات سيجدون اغراءات كثيرة لعدم العودة الى مصر ، وذلك اضافــة الى المــأزق الشخصى الناتج عن انتقال المبعوث من القرية الى المدينة الكبيرة ، الى الاقامــة الطويلة فى المدن الأجنبيـــة بما ينطوى كل ذلك من مغامرات وجدانية وثقافية واجتماعية ، تنقل صاحبها فى الغالب الى صفوف صفوة تعجز عن الاندماج فى مجتمعاتها الأصلية .

وكل ذلك يهدد حتى المدينة التى ما زالت فى طور الانشاء بالضمور ، أسوة بسابقاتها ففى مصر تجمعــات علميـــة كبيرة لا تقوم بالدور المنتظــر منهــا فى عصر العــلم مثل المركــز القومى للبحوث ، وهيئــة الطاقــة الذرية ، وأكاديميـــة البحث العلمى ، و ...

عائد الودائع الخارجية !

وأمر جيد أن يساهم أبناء مصر فى المسيرة العلمية لعالمنا . لكن هل علمــاء مصر العاملين فى الخــارج هم حقيقة رصيد بشرى لنا مودع فى بنوك أجنبية ، نحصل على عائده بانتظام ،

أو ينتظر حتى أن نحصل على عائده يوما ما .. كما يرى الدكتور ابراهيم بدران ، مرتكزا على أن لدينا رابطتين متأصلتين فى جيناتنا (مورثاتنا) منذ سبعة آلاف سنة (حضارة) هما رابطة العائلة ورابطة الأرض ؟

أم أن علينا الاقتناع بوجه النظر القائلة بأن هذه هى المساهمة الممكنة لنا فى تراث البشرية العلمى ، لأنه ليس لنا قبل بالنفقات الباهظة التى يتطلبها البحث والتطبيق العلمى هذه الأيام .

وسواء كان الأمر على هذا النحو أو ذاك فان علينا اعادة التفكير فى أمور كثيرة ليس آخرها ترشيد ما تتحمله الدولة من نفقات تعليمية ، فقد لا تكون الهندسة النووية هى الأجدى فيما يخصنا حاليا ، وقد تكون الطاقة الشمسية أهم - مثلا - من منطلق أن أوربا وأمريكا اللتين لا تناسبهما الطاقة الشمسية كما تناسبنا ، لن تقوم بهذا الجهد عنا .. وأن نركز فى أقسام الكمبيوتر على التطبيقات التى يمكن أن تؤهلنا لدخول العصر ، فحقبة الذكاء الصناعى القادمة تعالج اللغة نحوا وصرفا ودلالة و ... ، والأجدى أن نتحمل نحن هذا العبء .

المهم هو التركيز على فروع علمية بعينها هى الأكثر استراتيجية وأكثر احتياجا فيما يخصنا ، الى جوار الفروع

التى يمكن أن نحقق فيها انجـازات معقولة تسمح بألا نهدر ما نزرعه ، أو تترك عائده لغيرنا ، و ... وذلك اضـافة الى تهيئة أوضاع المؤسسات العلميـة التقنية القائمـة والجارى انشائها ، حتى تؤدى دورها وتحفظ كوادرها فى حالة عمل علمى حقيقى ، بالذات وسـط أوضـاع الاقتصـاد المصرى المتغير ، والسائر باتجاه احترام آليات السوق .

ضـرورة النهـوض والتقـدم

حتى لا ينتهى مآل الابداع العربى الى الصفر

المتابع لمـا يجرى فى عالمنـا : عالم شبكة انترنت وأدوات العولمة و ... ، خلال السنوات الأخيرة والوتائر التى يجرى بها ، يدرك مدى العزلة التى تتهدد العربى فيما يخص النهل من التراث الانسـانى والتواصـل مع الابداع العالمى فى كافـة المجالات ، حتى أننا بتنا على وشك العيش فى جيتو منقطع الصلة بما يجرى حوله .

ما طبيعة الجيتو المعرفى الحضارى الذى يتهددنا ؟ وهل من طريق لتجاوزه ، حتى لا ينتهى مآل الإبداع بل والوجود العربى الى الصفر ؟

***

لا بأس من حكايات تمهيدية لأزمة للاجابة :

دراســة تاريخ الفن :

أتاحت لى ظروف الحياة أن أدرس تاريخ الفنون الجميلة ثلاث مرات . والطريف أن ذلك حدث رغم اتمامى الدراســة من المرة الأولى فى واحد من المعاهد الأكاديمية المصرية بدرجة « امتياز » ، كما أن المرات الثلاث لم تغنينى عن السعى الى دراسة تاريخ الفن مرة رابعة هذه الأيام . وبديهى أنه ما كان لى أن أتجشم عناء دراســة جديدة لموضوع سبق وأن درسته ، الا مع الاحساس بأن الدراســة الجديدة ستضيف الى ما لم أحصله من دراستى السابقة .

فى المرة الأولى درست تاريخ الفن وسط زحام من الطلاب الموهقين الذين ساقتهم الرغبــة الى ركوب قطــار مواضــلة التعليم ، بصرف النظر عن وجهته أو عن « تاريخ الفن » بحد ذاته ، وسجنت الامكانات الأمر فى نطــاق سردى ، لم تتطرق معه الى مشاهدة الابداعات التى تتحدث عنها ، الا من بعض صور على البعد فى كتاب مطبوع بالأبيض والأســود فى يد الأستاذ . ولا جدال فى أن هذا الوضــع كان يؤثر على حماس وأداء كل أطراف العمليــة التعليمية أساتذة وطلابا ، كمــا أن الاقتصار على الحديث عن نواح فنية كالتكوين ودرأما اللون والايقاع والهارمونى بالألفاظ ينطوى على صعوبة شبيهة بتلك التى تواجه الحديث عن الموسيقى .. اذ أن لذلك « لغــات »

خاصة غير لغة الكلام : ومهما قيل ، فلن تزيد قيمة القول على قيمة تعليق مكتوب بصدد مقطوعة موسيقية لم يسمعها المرء !

أما المرة الثانية (عام ١٩٧٤ م) فقد قادتني ملابسات متعددة الى التحمس لخوضها .. كنت أقيم في عاصمة أوربية وسمعت اعلانا عن محاضرة موضوعها الفن المصرى القديم ، فشغفت لمعرفة ما يقوله هؤلاء الأجانب عن شيء يخصني . وجدتني في قاعة مسرح تتسع للآلاف مكتظة بالرواد الذين جاءوا مختارين ، واكتشفت أن المحاضرة تتناول جانبا واحدا من فنون مصر القديمة ، وأن هناك جزءاً ثانيا يلقيه محاضر آخر ، وجزءا ثالثا يلقيه غيرهما ، وأن هذه الأجزاء ليست الا فصلا من برنامج متكامل ، يقدم للجمهور العادى بتذاكر منفصلة أو « أبونيه شامل » مقابل قروش قليلة ، عن الفن منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر ، يقوم بكل حلقة من حلقاته أستاذ متخصص حاصل على درجة الدكتوراه في المرحلة المعنية ، زار بلاد الفنانين وأطلع على أعمالهم ، كما أن المحاضرة تقدم مسلحة بأرقى الامكانات التقنية في حينه ، وموشاة بكم هائل من المستنسخات الملونة ، وبتوصيات لزيارة متاحف قريبة ترى فيها جانبا هاما من هذه الأعمال ، وملحقة باجابة عشرات من أسئلة الرواد ، ولما كنت قد بهرت بالروح العامة ، وبما

يتاح من رؤية مسهبة للأعمال التى يجرى الحديث عنها ، وبمدى الالمــام والتعمق بموضـــوع المفروض أنه فن بلادى وأننى درسته دراسة أكاديمية ، ولمـــا كنت قد أدركت ذلك كله فقد قررت مواصلة دراسة تاريخ الفن من جديد •

المرة الثالثة (عام ١٩٨٠ م) كانت حين أتيحت لى الفرصة لمتابعة تاريخ الفن فى سلسلة برامج قدمتها محطة كبيرة من محطات التلفاز • جندت أفضـــل المحــاضرين الى جوار أفضل المعدين والمخرجين ، وجرت وراء أفضـــل الأعمــال الفنيـــة وأكثرها تعبيرا عن مقتضى الحـــال فى جنبات الدنيا الأربع ، وأتاحت الامكانات التقنية للتلفاز ، الى جوار ما سبق درجة هائلة من المناورة •• أختار الفريق أفضـــل زوايا تصـــوير الأعمـــال الفنية ، وقرب وكبر واجتزأ ومنتج وآخر وضاهى ، كما لم تكن هنـــاك أعباء مضجرة سواء من ناحية الوقت أو « وسيلة الانتقال » ، فكان الأمر متعة لا تبارى •

أما المرة الرابعـــة ففرضتها التطورات التى طرأت على امكانات الكمبيوتر ، فنهضت بسرعة عمله وسعة ذاكرته ، وجعلته قادرا على تناول الصـــور ، مما أدى الى ظهور مجموعة من البرامج ، مسجلة على أقراص ضوئية ((CD- ROM) لايزيد وزن الواحد منها على جرامات ، ويحوى آلاف الصور وأرقى الأعمال

الفنية فى مختلف العصور ، الى جوار وجهات نظر نقدية مختلفة راجعت هــذه الأعمــال ، وأداء مبدعيها وسيرتهم الفنيــة ، بالاضافة الى مواد وفيرة من أشهر موسوعات الفنون الجميلة ، ويستطيع مستخدم البرنامج ، فى أى وقت يريد ، وفى يسر بالغ ، بمجرد لمسة اصبع أن يتجول بين عناصر شبكة مترابطة متكاملة من المرجعيات .

(كأن ينتقل مثلا بصــورة اختيارية وبأى ترتيب يعن له ، ومن واقع المــادة التى يتعامل معها ، من سيرة بيكاســو الفنية الى لوحته « الحيــاة » فقراءة نقدية لها ، وقراءة ناقد ثان ، وثالث ، ثم الى مرحلة بيكاســو الزرقاء التى تنتمى اليها هذه اللوحة ، فمرحلته الوردية ، فزوجته فيرناند أوليفيه التى صاحبته فى هذه المرحلة والهمته اياها ، فلوحة فتيات أفنيون ، فقراءة نقديــة لها ، ثم مفهــوم المنظــور ، فســيرة براك ، فالتكعيبية ــ التكعيبية التحليليــة ــ الهارمونى ــ الفورم ــ الموســيقار أريك ساتييــه ــ دياجليف ــ الباليه الروسى ــ جان كوكتــو ــ ســـوبر رياليزم ــ سرياليزم ــ دالى ــ بريتون ... ، ومئات غير ذلك من اللوحات والمفاهيم والسير والآراء النقدية المتشابكة) .

كما أن مثل هذه البرامج تمكن المرء من التعامل بحريــة مع الأعمال الفنية .. فتتيح له أن يقرب صورها ويركز على

أجزاء منها ، بل ويغير ألوانها ويزيل ـ بقدر محسوب ـ أثار الزمن التى تراكمت على صفحتها ، ويكمل ما ضـاع من العمل الفنى ، ليراه وكأنه قد خرج للتو من بين يدى الفنان .

بل وتمكن برامج من هـذا النوع المرء من الاجتراء على هذه الأعمال وتحويل أى رسم يريد من المدرسة التى نفذ وفقا لمفاهيمها الى مدارس فنية أخرى كالتنقيطية أو التجريدية أو .. كما تمكنـه من اكساب صـور أعمـال النحت البعد الثالث لتبدو مجسمة .

ذلك فضـلا عن أن هـذه البرامـج تفى ـ ولا تكتفى بالاشارة ـ بالمعارف التى تعامل الفنون على أنها أحد تجليات الأجواء الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية التى تحيط بظهورها ، وتتيح نظرة موسوعية بانورامية عن ذلك .

لقد تعودنا ربط أسـماء انشتين وبلانك ومنكوفسكى بتاريخ الفنون الجميلة ، لكن يجب عدم خداع النفس فى هذا الصدد ، فمعظمنا يمارس بذلك تمارين يتذكر فيها ما سـمع أو ما قرأ ، وهذا شىء مختلف تماما عن تمارين المعرفة والفهم والفكر والتذوق الحقيقى .. لأن كثيرين ممن يرددون هـذه الأسماء لا يعرفون حقيقة انجازات أصحابها ، ولا كيف ارتبطت على وجه الدقة بالتطور المعنى فى الفن .

باختصار أن مثل هذه البرامج هى ورش فنية حقيقية يشاهد فيها المتذوق ، ويقتطف مما يشاهد ويسمع (التعليقات) ، ويكرر المشاهدة والسماع والتمحيص والتأمل ، وهذه الامكانات لا تتيح فرصة حقيقية لتذوق حقيقى فقط ، بل تؤدى الى انقلاب عدد من عيوب النقد الى مزايا . فقصور الأدوات فى الماضى أدى الى أن تتحول معلومات سياقية فنية حقيقية ، مثل سيرة الفنان ومجمل لوحاته والمعارض التى شارك فيها ، تتحول الى أوبئة ضارة لأنها بالصورة التى كانت تساق بها لم تكن تحمل قيمة فنية حقيقية للجمهور ، الذى لم ير غالبا قوائم الأعمال والمعارض التى تتكرر الاشارة اليها ، ولايمكن أن تكون حية فى ذاكرته بأى درجة من الدرجات . ويستحيل أن يكون لها على هذا النحو قيمة أكثر من كونها تدريبات ساذجة لاستخدام الأرشيف أو للذاكرة فى أفضل الأحوال ، ولا علاقة لها بحس أو ذوق .

لكن هذه السياقات تأتى مع الأدوات الجديدة وسط كوكبة من الامكانات الملتصقة بالحس الفنى ، التى تمثل الجسد الحى الذى يجرى التعامل معه ، مما يجعلها نافذة على ما يربى الحس والذوق وعلى ما يرقى بهما ، مما يفتح الباب لوثبة هائلة فى عالمى التذوق والمعرفة .

وقد يتصور البعض أن التفاوت بين حصيلة مرات درس الفنون الجميلة أمر يكتسب منطقيته من طبيعة موضوع « تاريخ الفن » ، وكون الصورة تلعب دورا أساسيا فى المسألة ، ولا يشكل ناموسا عاما فيما يخص كل مجالات المعرفة . لهذا لا بأس من الانتقال للحكاية الثانية .

النظرة للثقافة العلمية :

عام ١٩٧٠ كنت أرأس أحد الأقسام بمجمع الحديد والصلب . وأوفدنى المجمع فى مهمة هندسية دامت ستة شهور ، فى واحد من أكبر مصانع الحديد والصلب فى العالم . وجعلتنى تجربة العمل مع الروس فى المجمع أرفض من اللحظة الأولى فكرة أن تصاحبنى طوال الشهور الستة مترجمة ، تتيح لى أن أتعامل خلال عملى واقامتى باللغة الانجليزية . وبدلا منها طلبت مدرسا يساعدنى على التقدم فى لغة من سأعيش وأعمل معهم . وفى أول لقاء طلبت أن نبدأ مباشرة فى التعلم عن طريق قراءة الشعر . واختارت مدرستى ، تأثرا بطبيعة الموقف ، أشعارا طالعت فيها علاقة بالتكنولوجيا والصواريخ و ... ورغم تنحيتى الأشعارها ظللت اسميها دعابة « تانيا الفضائية » ، ففوجئت بها تحكى عن اهتمامات فضائية فعلا ، قادتها الى « السجن » فى طفولتها .

كان فى حديقة المدينة الصغيرة البعيدة التى نعيش فيهـا قبة سـماوية ، وكان يخلب لب الأطفـال حضـور عروضها . ويوما قرأ الصبية فى أحد المجلات العلمية ، المخصصة لهم ، عن الحضارات الكونية الأخرى ، والاشارات التى ترسل بها الى الأرض . وخلال النقـاش اختلف الأطفـال حول مواقع بعض النجوم التى ورد ذكرها فى المـادة العلميـة ، وأخذتهم الحمية ، وكان الليل قد حل ، فقرروا عـدم الانتظـار حتى الصباح ، واخترقوا أسوار الحديقة ومبنى القبة السماوية وقاموا بتشغيلها . وبينما انهمكوا فى نقاشهم كان البوليس قد حاصر المبنى الذى دبت فيه الحركة على غير العادة ، وتم القبض عليهم . وكان من بينهم مدرستى الموقرة . التى لم تتمالك نفسها أمام لوم الضـابط .

ـ يا تانيا انت بنت . مالك ومال الصبيان الأشـقياء هـؤلاء ؟

ـ وهـل يعنى كونى بنتـا ألا أعـرف مكان النجـم « س » و ...

ـ يا تانيا الصباح رباح ، وكل حاجة لها نظـام شغل ، ويمكن أن تتلف باللعب فيها .

ـ ماذا تقول ؟ بالطبع لايمكن أن تتلف فأنا التى كنت أديرهـا .

ـب والله عـال . أنت من كنت تديرينهـا ونحـن نضرب أخماسا في أسـداس ونقول أي غزاة من الفضاء الخارجي حطوا على القبة السماوية ...

حدث ذلك مع مانيـا فى الستينات المبـكرة ، ولعله نقل للقارىء المزاج العام للطفل الأوربى آنذاك ، وبيننا وبين ذلك أكثر من ٣٠ سنة ، نهض فيها الطفل الأوربى الى ذرى أرقى كثيرا . حتى أنه بات فى بيت أكثر من نصف هؤلاء الأطفال قبة سماوية كاملة ؛ أرقى وأكثر ابهـارا وثراء ؛ على الأقراص الضوئية الكمبيوترية اياها ، يتعامل معها فى أى وقت يريد ، وبامكانات شبيهة للامكانات التى فصلناها سابقا . وذلك طبعا الى جوار مئـات المطبوعات والدوريات المكرسـة لتوسـيع آفاقهم ومتابعة تطلعاتهم العقلية بالرى والنمـاء ، ناهيك عن مئات البرامج التليفزيونية .

(بالمناسبة كان لدينا فى مصر كلها قبة سـماوية واحدة تنافسنا على نقلها ـ أو قتلها فى حقيقة الأمر ـ ليجلس هـذا أو ذاك من الموظفـين المهمـين مكانهـا فى أرض المعـارض بالجزيرة) .

ولعله المكان المناسب للاشارة الى أن التقنيات الحديثـة خطت بأطفال العالم المتقدم خطوات بعيدة فى مجالات كثيرة ،

ربما كان بليغ الدلالة أن نذكر منها هنا مجال اللعب (! ؟) ٠ فلعبة مثل « مدينة سيمم » تعطى الطفل ميزانيـــة كاملة لبنـــاء مدينه ، مع صلاحيات مطلقة لادارتها وتظهر على الشاشة أمام الطفل مدينة مجسمة كاملة ينفق عليها من ميزانيتـــه بعناية ٠ فما أن يقصر فى اعتمادات الشرطة وتعيين وتدريب كوادرها حتى يفاجأ بارتفـــاع مستوى الجريمة فى المدينـــة ٠ وما أن يقلل فى الاعتمادات الخاصـــة بمحطات الطاقة حتى تغلق المصـــانع أبوابها وتزداد البطالة ، والطريف أن لهذه المدينة اضافة تجعلها تنطبق مرة على باريس ومرة على لندن وثالثة على طوكيو ورابعة على « سيم عام ٢٠٠٠ » ٠٠ وهـــذه مجرد لعبة من اللعبـــات التى يلعبها كثير من أطفال الغرب اليوم ٠

لقد صار للعب المحض (دون وعظ مدرسى) قيمتـــه التربوية والاقتحامية والابداعية ، فالأطفال باتوا يتدربون من خلاله على مواجهة مشكلات الحياة ، والأجيـــال الجديدة من اللعبات الكمبيوترية المتطورة تحفز وتنمى الى جوار مهارة حل المشكلات ، مهارة اتخـــاذ القرار ، كمـــا أنها تزيد من قدرة الطفل على التركيز وتشحذ خياله ٠

كما أن امكانية « الأخذ والرد » ـ أو التفاعل ـ مع البرامج الكمبيوترية الراقية وسيلة فعالة للتخلص من آفـــة

التلقى السلبي (الناتج عن تعليم التلقين ومتابعة التليفزيون) ، مما يساهم فى تنمية المهـارات الذهنية لدى الصغار ويزيد من قدرتهم على التفـكير المنهجى المنظم ، ويحثهم على التفـكير المجرد ، ويجعلهم أكثر ادراكا للكيفيـة التى يفكرون بهـا ويتعلمون من خـلالها ، كمـا أنه ينمى قدراتهم الابداعيـة والابتكارية ، ويقلل من تأثير رقابة الكبار الكابحة عليهم ، ويعزز فى نهاية المطاف نزعتهم الى التفكير بالاستقلال .

ولا بأس بعد ذلك من الانتقال الى الحكاية الأخيرة .

اقمار اسرائيل الصناعية :

كانت البروفيسورة (! ؟) آليسا شنهار سفيرة اسرائيل فى موسكو ، تستعجل سائق السيارة الروسـية فى تغيير أحد عجلاتها على الطريق بين مطار « بليستسك » وقاعدة اطـلاق الأقمار الصناعية ، حتى تلحق باللحظة الحاسمة لاطلاق القمر الصناعى الاسرائيل « جوروين ــ ١ » بينما كان المهنـدس أناتولى فولفوفسـكى ، الروسى الذى هاجر هو وأسرته الى اسرائيل قبل سنوات (ليس هناك ما يمنع أن يكون واحدا من عصابة تانيا مدرستى) ، والذى عمل ما يقرب من ثلاث سنوات فى بناء القمر الاسرائيلى ، يعبر ــ للصحفيين ــ عن سـعادته بالعودة للمرة الأولى الى روسيا بصفته عالمـا اسرائيليا (؟ !) ،

للمشاركة فى اطلاق القمر الأسرائيلى ، ويبين كيف قضى الليلة السابقة مع الرفاق الروس يغنون بالروسية والعبرية ، ويبين أن علاقات التكامل بينهم تمضى بصورة ممتازة ، وكيف انه يحس برضاء عميق ، بعد أن تكلل الجهد المتواصل الذى بذله فى اسرائيل بالنجاح . ذلك بينما كان زميله الروسى الذى يشرف على استعدادات الاطلاق يعبر عن سعادته بالتعاون الرفيع المستوى مع الزملاء الاسرائيليين ، وبتحويل الصاروخ الحربى الرهيب « اس اس ــ ٢٥ » ، وبمعاونة الأصدقاء الى صاروخ يستخدم فى الأغراض السلمية (؟ !) ، كاطلاق القمر الصناعى الاسرائيلى .

والقمر الصناعى المعنى ، قام بصناعته ، وبتكلفة بلغت ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار ، طلاب (! ؟) معهد من معاهد « تخنيوم » ــ أقدم الجامعات الاسرائيلية (! ؟) ــ بالاشتراك مع عشر من شركات التقنيات المتقدمة فى اسرائيل ، بدعم مالى كانت هناك استحالة لاكمال المشروع بدونه ، من رجل الأعمال الأمريكى جوزيف جوروين ، الذى حمل القمر « جوروين ــ ١ » الى جوار اسمه رقم « ١ » اعتبارا لما هو آت (؟ !) .

وفى المؤتمر الصحفى الذى عقده الوفد الاسرائيلى فى مطار موسكو ، بعد الاخفاق فى ايصال القمر الى مداره

تيخوم بمهمته ، ولعطب اصاب عمل الصاروخ ، قال البروفيسور جـورا شافيف رئيس « معهد ابحاث الفضـاء » فى اقـدم الجامعات الاسرائيلية (تخنيوم) : « سنحاول تحرير القمر الصناعى من بقايا الصاروخ » واستطرد البروفيسور رئيف تدمر رئيس وفد الجامعة : « وحتى اذا لم ننجح فى ذلك فاننا لن نفقد سـوى جسد القمر .. لقد حققنا أهدافنا الأكاديميـة التعليمية فيما يخص اعداده وتجهيزه . وتصاميمه وخبرات صنعه باقية لم تضـع معه ، ويمكن أن ننخرط للتو فى صناعة نموذج ثان له ، بتكاليف أقل كثيرا ، وعلى الروس تحمـل تكاليف عملية اطلاق بديلة ، والأكيد أن ما حدث لن يؤثر سلبيا على صناعة الأقمار الصناعية فى اسرائيل .

ويمكن أن يكمل خطوط الصورة السابقة أن اسرائيل لم تستطيع الصبر على تأكيد أن الفشل لم يكن سوى فشل روسى فقد أطلقت ، بعد أيـام فقط ، قمر التجسس « أفـق ـ ٣ » بصاروخ اسرائيلى طورته بـ « علمائها » من الألف الى الياء هو الصـاروخ « شافيت » ، ومن قاعدة اطـلاق اسرائيلية ، وفى مسـار من أصعب مسارات الاطـلاق (عكس اتجاه دوران الأرض) .

لكن الصورة ستبدو أكثر اكتمالا مع التصريحات التى

أعقبت اطلاق القمر والتى أكد فيها أكثر من مسئول اسرائيلى كبير على : « أن اسرائيل أصبحت تملك بشكل مستقل امكانية الحصول على المعلومات الاستراتيجية التى تحتاجها دون الاعتماد على بلدان أخرى » مشيرا الى تجاوز تحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المعلومات أيام حرب ١٩٧٣ وحرب الخليج ٠

ان مجمل التفاصيل السابقة يكشف عما هو أخطر من امتلاك اسرائيل أداة لاستصلاح ما يجرى فى أرض الجيران ، وهو امتلاك مخطط محكم للتعامل من موقع ريادى مع عصر الفضاء :

ـ قدرة على تصميم وتصنيع صواريخ تصعد بحمولات درية ؛ وليس أقمار صناعية فقط ، الى الفضاء الخارجى ٠

ـ قدرة على تصميم وصنع أقمار صناعية مختلفة الأغراض تتناسب مع احتياجاتها ٠

ـ امتلاك ميدان للتجارب والاطلاق ، ومحطات أرضية للمتابعة ٠

وربما كان الأهم من ذلك كله وعى بمسار التقدم العلمى والتكنولوجى بامكاناته الحالية وآفاقه المستقبلية ، ووجود

مؤسسة متخصصة لقيادة العمل فى هذا المجال (مؤسسة الفضاء الاسرائيلية) لها استراتيجية محددة وأهداف واضحة ، يساندها فى أداء وظيفتها نظام تعليمى متخصص (معهد أبحاث الفضاء فى « تخنيوم ») ، وتوزيع الجهد الصناعى على من يستطيع المشاركة (شركات ومؤسسات اقتصادية وعسكرية و ...) وتعاون عالمى أقل ما يقال عنه أنه يجرى على قدم المساواة مع المتقدمين ، ومصادر تمويل سخية لهذا النشاط (٣ر٥ مليون دولار لتدريب التلامذه فى تجربة حية ! ؟) ، بالاضافة الى منافذ وعلاقات وسياسات ناجعة لتسويق نتاج نشاطهم .

وترجع أهمية ذلك كله الى أن أنشطة وتكنولوجيا الفضاء نوع من التكنولوجيات الشاملة لا تقتصر مجالاتها على التجسس العسكرى ، بل تمتد كما بات واضحا للجميع اليوم الى الاستطلاع المدنى والطقسى ، والاتصالات ونقل أحداث القارات الأخرى .

وقد لايكون واضحا بنفس القدر أن تكنولوجيا الفضاء تنطوى على حلول للمشاكل الملحة فى الزراعة والغذاء ،

بالاستعانة بقدراتها على الاستشعـار عن بعد والتنبؤ بالطقس والآفات ، والمساهمة فى زيادة الانتاج الزراعى وتعمير الصحارى والحفـاظ على الثروات الطبيعية ، وربمـا التكاثر فى ظروف الفضـاء .

وان كانت هذه التكنولوجيا تتمتع بمثل هـذه القدرات فيما يخص نشاط تقليدى كالزراعة ، فعلينا أن نتصور ما يمكن أن تتيحه من تقدم فى مجالات الصناعات التقليدية والصناعات الالكترونية والاتصالات والتجارة أو من خدمة لأهداف التقدم الاقتصادى والاجتماعى عامة ، وبالتالى نمو ورفاهية التجمعات البشريـة .

انها باختصار تكنولوجيـا تترك أثرها على كل نشـاط بشرى ، بل وتعيد صياغة رؤية الانسان وموقفه بالنسبة لمجتمعه وبيئته واقليمه وعالمه والكون المحيط به . صحيح أن الخطوات الأولى فى عالمها تستفيد من احتياجات الأمن والدفاع العسكرى كمدخل ، لكن سرعان ما يصبح للأمن القومى الأولوية فى الأمر، اذا أخذنا بعين الاعتبار أن مفهوم هذا الأمن قد تغير واتسعت ضفافه لتشمل ما هو سياسى وثقافى واقتصادى واجتماعى و ...

ولا يمكن انهاء هذه الحكاية دون اشارة الى أن اسرائيل تسعى الى وراثة التراث العلمى والفنى السوفييتى ، فبعد هجرة فرق فنية كاملة اليها ، فان التعاون العلمى الصناعى العسكرى هو محور التعاون مع بلدان الاتحاد السوفييتى القديم وفى مقدمتها روسيا وأوكرانيا ، اللتان يزورهما بانتظام عدد من المسئولين الاسرائيليين بالذات وصفوة العلماء السوفييت قد ذهبوا الى اسرائيل ويعملون فيها .

ولا يقتصر الأمر على بلدان الاتحاد السوفييتى القديم فقد سبق التعاون على مستو لم يتحقق لأحد مع الولايات المتحدة وأوربا من قبلها ، ومنذ ١٩٥٨ م ؟ ! ،وفى أرقى مجالات التسلح والتقنية ، ونكتفى هنا بالاشارة الى تطوير الصاروخ « حيتس أو آرو » (السهم) بالاستعانة بالتمويل والخبرة الأمريكيتين فى اطار مشروع حرب الكواكب أو الفضاء (! ؟) . هذا كما أعلنت الصين مؤخرا عن أنها تبنى واديا للتكنولوجيا المتقدمة بالتعاون مع اسرائيل .

وكنتيجة لذلك باتت اسرائيل تصمم وتطور وتصنع وتبيع كثير من معدات « عصر الفضاء » حتى للبلدان المتقدمة (؟ !).

هذا كما أن اسرائيل أطلقت قبل فترة قمر الاتصالات « عاموس » ، وهو من النوع الذى ينقل البرامج التليفزيونية

والمكالمـات الهاتفيـة و ... ، وقد كانت نخطط لاطلاقـه منذ سنوات ، وأن تريثت ، نظرا لطبيعته التجارية . حتى تمهد الساحة الاقليمية والدولية جيدا لتسويق خدماته .

بعد الحكايات نعود الى سؤالنا .

ما طبيعة الجيتو المعرفى الحضارى الذى يتهددنا : وهل من طريق لتجـاوزه ؟ حتى لا ينتهى مآل الابـداع العربى الى الصفر ؟

ولا أعتقد أننى بعد الحكايات السابقة فى حاجة الى تفصيل أكثر عن طبيعة الجيتو الحضـارى الابداعى الذى يتهددنا ، بالذات اذا أدركنا أنه ليس هناك ابداع حقيقى فى مختلف مجالات المعرفة دون المـام بتراث الانسانية ، حتى لا نعـاود اختراع « ما سبق اختراعه » ، وبعد ظهور ما يتخطاه ويحد كثيرا من قيمته النسبية . وليس هنـاك ابداع حقيقى دون أن نكتسب المهارات والقـدرات التى تمكن من العمـل الصحيح المثابر ، والوجود فى حالة من اللياقة الابداعية .

نعـم ان التثقيف الذاتى والدأب الذاتى بين العوامـل الحاسمة فى تحصيل الدربة الابداعية وتراث الانسانية معا ، الا أن ذلك يكاد يكون مستحيـلا ان لم تتوفر منـاهل التراث

الانسانى ، الى جوار امكانات معقولة للتعليم والثقافة العامة الراقيين .

وهكذا يبقى الشق الثانى من السؤال : وهل من طريق لتجاوز الجيتو ، حتى يكون هناك مجال للابداع ، وحتى لا ينتهى مآل الابداع العربى الى الصفر ؟

وطبعا نحن نبحث عن حلول واقعية ، ليست من قبيل العمل على اشاعة استخدام الكمبيوتر والأقراص الضوئية اياها والاتصال بالشبكات العالمية ، حلول تعتمد على امكانات متيسرة فى هذه اللحظة لأوسع فئات المجتمع ، ولا تحتاج الا الى القرار والموائمة . ودعنا نعبر الى ما نراه حلا عن طريق سؤال : هل يمكن أن يكون للتلفاز دور فى الأمر ؟

وليغفر لى القارىء هنا بعض التكرار ، فالسؤال يلخص الوسيلة الأولى التى ترى دراستنا أن بمقدورها ضرب الجيتو الحضارى الذى يمسك بخناقنا ، مما يجعل الصفحات القادمة بمثابة الخلاصة والتلخيص لأهم ما جاء فى هذا الكتاب ..

صحيح أن الناس تعودوا على تحذيرات الدارسين من تأثير التلفاز الضار عليهم وعلى أولادهم .. على وقتهم واستيعابهم ، بل وعلى صحتهم ، وصحة سعادتهم الأسرية ، ناهيك عن البساط الذى يسحبه من تحت أقدام ما يرقيهم من أنشطة كالقراءة .

لكن هذه صورة مغلوطة تماما فليست كل برامج ومواد التلفاز كذلك ، ولأن التلفاز يمكن ان يكون ، على الجانب الآخر ، اعظم وسيلة للتاثير على جميع جوانب الحياه ، ولأن دوره ينمو باطراد • وقد أدركت تجمعات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى ترقية مشاهديه والاخذ بيدهم • وهذه عملية يسيرة فوق أنها سهلة •

وأغلب الجامعات التى تتداول الحديث عنها حاليا « دقة قديمــة » ، بينما الجامعــات الحديثة جامعــات تلفازية تذيع « مناهجها » على الهواء وتوفر على الدارسين كثيرا ، لأنهــا تتيح لهم أرقى المضامين والوســائل التعليمية ، بأكثر الأدوات ابهارا ، وتجسده فى هذه الوسائل والمضامين على مدار اليوم ، دون أن تكبد الطالب عناء الزحــام فى المواصلات والشوارع والمدرجات ، وعلى أهميــة هذا الدور التعليمى للتلفاز فهو ليس كل ما يعنينا هنــا ، لأن برامج المدارس والجامعــات لم تعد الوســيلة المثــلى لاســتيعاب التراث الانســانى وتجــاوزه ، ولأن ما يعنينا الى جوار حفز الناس العاديين (المتفرجين) هو أن هذا التراث ، وفى مختلف المجالات الفكرية والفنية والتقنية ، صار مجسدا بأشــكال درامية ومعرفية مبهرة على شاشــات التلفــاز •

وأى انسان يقظ تتاح له متابعة محطة تلفاز ذكية لابد أن

تزلزله البرامج الكثيرة التى تقدم جماع المعارف البشرية .
والجيد منها لا يقتصر على عرض هذه المعارف ، وانما يقدم منطق تتابع اكتشافات هذه المعارف ، مما يصيب المتفرج بالعدوى ، ويربى قدراته الابتكارية .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، لأن الأكثر أهمية هو تجاوز برامج التلفاز هذه الخطوة الأولى الضرورية لكل ابداع: الاستيعاب الجيد للتراث الانسانى وللروح التى أنجز بها ، وسعيها الى أن ينخذ بعض لعب وترفيه المتفرجين الوجهة نفسها ، اذ صارت هناك برامج جذابة تشجع وتدرب وتحث الناس على النظر بصورة انتقادية لما يشاهدونه عامة ومنه هذا التراث ، وتحفزهم على تجاوزه ناهيك عن الاستفادة منه .

ان الحل الذى نراه لتجاوز الجيتو المعرفى هو قناة تلفاز مجانية متخصصة فى « التثقيف والتعليم والحث على الابداع »، تسخر معطيات المعرفة فى تشكيل وعى الناس ، وتتيح لهم الفرصة لممارسة حياتهم اليومية بأكبر قدر من الموضوعية والابداع ، وفى تناسب مع مسيرة العصر وانجازاته .

وهذا يتطلب منا وقفة مسهبة أمام ما يمكن أن تعطينا مثل هذه القناة ؟

تعليم على أرقى مستوى :

ان كانت مصر قد أقرت بأن النهوض بمستوى التعليم صار مشكلة أمن قومى لابد وأن تحظى بأعلى قدر من الرعاية ، وان كانت مصر قد اختارت أن تكون السنوات القادمة هى أعوام تطوير التعليم بهدف مواجهة متطلبات العصر والمستقبل ، واعداد أجيال أكثر قدرة على تحديات الحياة (فى المشروع القومى لتطوير التعليم) • فان برامج هذه القناة لا بديل لها فى اتاحة أفضل فرص التعليم لكل المصريين ، وبطريقة تتجنب كل ما يعوق التعليم المصرى عن صناعة المبدع •

وكلنا يعرف كيف يتبارى الناس على الحاق أولادهم بالمدارس النموذجية وبفصول المتفوقين فيها على وجه التحديد : ومثل هذه القناة لا تمكننا من جعل مصر كلها فصلا للمتفوقين فقط ، ولا من القضاء على الدروس الخصوصية فقط ، وانما تساعدنا على اتاحة فرصة التعليم على أرقى مستوى للجميع . وبالتالى اشاعة ديمقراطية حقيقية فى نظام التعليم ، بل وتتيح مرونة هائلة فى التطوير المستمر لبرامج التعليم ، وبما يمكن أن يتضمن حتى توفير خلاصة منجزات الأقراص الكمبيوترية اياها ــ للجميع ــ بصورة مركزية ــ هذا كما أن هذه القناة تساعدنا على ما يمكن أن نسميه التعليم العلاجى أو التكميلى للمتخصصين الذين تخرجوا بتعليم تجاوزه واقع تطور المعارف

كثيرا ، وللمدرسين الذين تسابقهم المعرفة . ذلك بالاضافة الى العمل على حث الابداع وحفزه ؟

ان مثل هذه القناة تمكننا من اعداد البرامج التعليمية كما فى كل أنظمة التعليم الراقية بحيث يصل للتلميذ بشكل من الأشكال حس التطور المستمر فى المعرفة والثورات الكبرى التى حدثت فى اطار كل علم ، بل والمخاض الصعب الذى صاحب هذه الثورات ، والمعارضة الشرسة لها من قبل الجهات المتخصصة ، التى بدت طويلا وكأنها على حق .

كما أن هذه القناة تمكننا من تلافى العيوب التى تضرب نظام التعليم المصرى فى مقتل . وأحد هذه العيوب هو ما يفرضه هذا النظام من اكمال المرء تعليمه فى نفس واحد ، العالى بعد الثانوى ، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم ، بعد فترة توقف لأى سبب كان ، الأمر الذى يؤدى الى تعلق الجميع بأهداب « قطار التعليم الطوالى » حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية . فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق ، أين الفرصة لمن شغلته الشهادات والدروس الخصوصية ، ولم يصل للعشرين بعد ، فى أن يكشف ميله الحقيقى ، وعلى مهل وبالتجربة ، وبصورة تجعله محبا مهموما بشئون وشجون التخصص الذى يريد أن يقضى حياته معه ويبدع فيه ؟

وفى كل الأنظمة التعليمية المتقدمة ليست هناك قيود على عودة من قطعوا رحلة تعليمهم ، بل أن فترة العمل تحسب لصالحهم عند القبول مجددا فى التعليم العالى ، لانه ينظر لذلك فى اطار النضج العام للفرد ، وتزيد فرص هؤلاء ان كانوا قد احتكوا خلال تجربة عملهم بالمجالات التى يسعون لاكمال دراستهم فيها ، بل وتقدم لهم التسهيلات والاغراءات ، من منطلق معرفتهم الواقعية لما هم مقدمين عليه .

مجمل القول أن الرغبة فى مواصلة التعليم والترقى المعرفى رغبة مشروعة وضرورية فى عصرنا ، وينبغى تلبيتها على أوسع نطاق مع الخروج من دائرة الهدر الجهنمية ، بالذات وقد قدم العصر حلولا ناجعة لذلك ، تتمثل فى « الجامعات التليفزيونية الحرة » التى تقبل أى راغب فى الالتحاق بها (بصرف النظر عن اعتبارات السن أو تاريخ الحصول على شهادة ما أو ...) ، وهى توصل مقرراتها للطلاب فى بيوتهم عن طريق الاذاعة المرئية والمسموعة أساسا ، ولا يؤم الطالب مركزها الرئيسى الا فترة محدودة لا تتجاوز الشهر كل سنة (خلال عطلة الجامعات العادية للاستفادة بامكاناتها ومدنها الجامعية) لبعض التدريبات العملية وأداء الامتحان . وهى توفر خدماتها (حتى نيل درجة الدكتوراه) برسوم رمزية ، ذلك أن تكلفة التعليم فيها لا تتجاوز ٢٠٪ من مثيلاتها فى الجامعات العادية ،

وتقل هذه التكلفة كلما زاد عدد الطلاب ، لأن الجزء الأكبر منها يذهب الى اعداد المقررات •

وجدير بالذكر أن الوقت الذى ينفقه طالب الجامعة الحرة فى الدرس والبحث يقل كثيرا عن الوقت الذى يقضيه طالب الجامعة العادية فى المواصلات ، وانها أرقى من الجامعة التقليديه، اذ يسهل نتيجة لمركزيتها أن تعكس على نحو أكبر أهم سمات التعليم الجامعى الابداعى ، مثل الميل الى البحث الذاتى والاعتماد على النفس ، والارتباط بمشاكل الواقع (الدارسون فيها يعملون فى مجالات مختلفة) ، كما أن ظروفها : من اتساع القاعدة والمركزية ومرونة امكانات التطوير تتيح فرصة تحديث المقررات باستمرار : للالتزام بأرقى المستويات • ذلك مع توافر الرقابة الاجتماعية عليها (تذاع مقرراتها على الهواء) • هذا كما تتيح المركزية الاستفادة من الأساتذة أصحاب القدرات المتميزة ورفع عبء الأعمال التكرارية عن الأساتذة عامة ، وكل ذلك يجعل العملية التعليمية فيها أرقى من وجهة النظر الابداعية •

هذا كما يمكن جعل القناة التليفزيونية الجديدة أداة ناجعة لاشاعة اللغة العربية وأجادتها بوصفها أداة تنظيم الفكر، لأن عدم اجادة استخدام هذه الأداة يعرقل كثيرا من قدرة المرء على التعبير وبالتالى على التفكير • وهذه قضية بالغة

الأهمية رغم تأخير السياق لها الى هذا الموضع ، ولأن ما تتعرض له اللغة العربيـــة يكاد يجرنا الى كارثة واسعة الأصداء . لكن ذلك لا يعنى عدم الاهتمام باجادة اللغات الأجنبية فقد صار من البلاهة ، التى تنال كثيرا من المرء نفسه . الاعتقاد فى امكان تجاهل متابعة النتاج المعرفى العالمى .

هذا كما أن الجامعة الحرة هى الحل الناجع لمشاكل من قبيل الربط بين الجامعة والمجتمع ، والاهتمام بالبحوث التطبيقية وقيامها بدور الخبرة لمؤسسات المجتمع : فطلابها موجودون فى مختلف المجالات .

حث التفكير الابداعى :

ان الهدف من القنـــاة التليفزيونية التى نطالب بها ليس اتاحة الفرصة لتعليم على أرقى مستوى واشاعة المعرفة العلميـــة والتراث الانسانى فقط ، لأن مواردها يمكن أن تكون حثـــا وترشيدا لمناهل معرفية أخرى مثل عمليـــة القراءة ، وذلك عن طريق البرامج التى تتطرق بشكل أو بآخر للكتب . لكن لعل الأهم الذى يقود اليه ذلك كله هو عمل برامج هذه القنـــاة عملا مباشرا على الحث الابداعى . والمسألة ليست غريبة علينا تماما فقد أطلعنا على أطراف من برامج حث الابداع الأجنبية فى برامج المسابقات والجوائز الشائعة فى تلفازنا . لكن كثيرا منها ابتسر حتى أفرغ تماما من أى قيمة تطورية حقيقية .

وقد يتصور البعض أننا أخطأنا العنوان فهـذه برامج منوعات فكاهية خفيفة .

وحث الابداع والتفكير لابد أن يكون مسألة « بايخـه ثقيلة الدم » يختص بها أفراد ثقيلو ... لكن الهدف الأول من حديثنا ليس الا مثل هذه البرامج الخفيفة الدم والحضور ، لأنها هى التى تناسب طبيعة الابداع الحقيقية ، وليس أحوال متفرجينا فقط .

نعم لدينا نواة ينبغى تطويرها آخذين بعين الاعتبار أن بيت القصيد فى سعى الانسان وتقدمه لم يعد تذكره للمعلومات المختلفة التى يجاب عنها بأدوات استفهام مثل من (اكتشف ، وفعل ، وقال : و ...) ومتى وأين ، وانما صـار هـذا التقدم يرتبط بما يجـاب عليه بأدوات مثل لمـاذا (اكتشف ، فعل ، و ...) وكيف ، لأنها هى التى تحث على التفكير وتقود الى الابداع . وقد بتنا نخلط كثيرا بين التذكر والتفكير ولأن كل برامجنا التعليمية والتلفـازية ، وحتى البرامج التى تتخذ من التفكير عنوانا لها ، تدور معظم أسئلتها ، ان لم تكن كلها بعيدا عن التفكير وتقف عند حدود التذكر .

والتحلق والدوران حول أسـئلة التذكر أمر عقيم ليس فقط لأنه يقود مع الفهلوة الى « فلسفة البرشام » و « قيم

البرشام » ، بل لأنه يحط أيضـا ، فى النهاية ، من قدر الانسان الذى وهبه الخـالق نفحة من قدراته الخـلاقة واستخلفه فى الأرض .. يحط من قدره ويسخطه الى « آلة متذكرة » متواضعة الامكانات والقدرات ، اذا قارناها بالأدوات التى صنعها الانسان نفسه لتساعده على التذكر ، مثل القواميس والموسوعات وبنوك المعلومات وهذا ما دفع الجديرين حقا بصفة « من استخلفـه الله فى الأرض » لأن يعلموا أولادهم طرق تحرير أمخاخهم من تذكر المعلومات ، حتى تتفرغ للتفكير والخلق .

ديموقراطية مناهل المعرفة :

ان مثل هذه القناة هى الحل الأمثل لديمقراطية التعليم والتثقيف والمعرفة ، وتلبية رغبـة الأعداد الكبيرة فى الترقى والاستفادة من امكانات العصر ، فوق دورها فى التنشيط الفكرى العـام ، فبرامجهـا تذاع على الهـواء ، ولأن كل ما سـبق مما لايمكن تركه لقانون أسعار السوق والعرض والطلب .

ان ديمقراطية التعليم ليست مجرد مسألة أخلاقيـة فكل المجتمعات الواعية لمستقبلها تعمل على اتاحة ذلك ، ويكفى فى هذا الصدد الاشارة الى أن عمليـة اكتساب وتطوير المعرفة ، التى صنعت التجربة اليابانية ، تبدأ بالتعليم الالزامى فى المدارس التى تشرف عليهـا الدولة . وفى اطار تكافـؤ للفرص يسقط

الحواجز الاجتماعية ، ويتيح امكانات التقدم أمام الجميع ، مما يؤدى الى الاستفادة من أفضل العناصر البشرية دون تمييز ويستمر هذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الأخرى دون حواجز اجتماعية وذلك تطبيقا لما يشيع فى العلوم التربوية الحديثة من أن عدم تكافؤ الفرص بين كل أفراد المجتمع فى هذا الصدد ليس الا اعادة لانتاج الظلم الاجتماعى والتخلف الحضارى .

ومن المهم أن نذكر فى هذا الصدد أن القناة التليفزيونية الجديدة ستجعل المدرسة الراقية والجامعة الراقية تصل الى المناطق الريفية والمعزولة والنائية من البلاد ، بل والى التلاميذ ذوى الظروف الخاصة (المرضى مثلا) .. كما أنها ستقلل من اعتماد نظم التعليم على الأداء المتواضع لكثير من المدرسين ، وتقضى على شكاوى فى أعدادهم بفتح وكسر الألف على حد سواء .

وقد انتشرت الجامعات الحرة من هذا المنطلق فى بلدان كثيرة من بريطانيا الى الصين الى اسرائيل كما دفع ذلك التوجه عددا من البلدان « النامية » الى توظيف استثمارات هائلة فى مجال الاتصالات ، فعلى سبيل المثال تسعى الهند الى ربط مناطقها الريفية بشبكة اتصالات هائلة ، ادراكا منها للدفعة التى ستقدمها الشبكة الجديدة للتعليم والتقدم ، وتحلم نيودلهى بأن

تربط بين ٥٧٦ ألف قرية خلال ثلاث سنوات ، فى إطار خطة تحديث تتجاوز كثيرا ما نطالب به ، وقف بالهند على مشارف طريق المعلومات السريع ، وتكرس لها حوالى ثمانية بلايين دولار .

الامكانات متيسرة :

بقيت اشارة الى أن الخبرات العالمية . بل والمحلية الخاصة بمواد مثل هذه القناة وفيرة ومتاحة ، كما أن مقتنياتها التقنية لا تعز علينا ، فالجامعة الحرة البريطانية مثلا ، تعتمد وهى أعرق الجامعات الحرة على ٥٠٠ ساعة من ارسال الاذاعة ومثلها من ارسال التليفزيون طوال العام الدراسى الواحد .

والمسألة ليست غريبة علينا تماما فلدينا نواة البرامج التعليمية ، ولدينا نواة الجامعة الحرة ، كما أننا قد اطلعنا على أطراف من برامج حث الابداع فى برامج المسابقات والجوائز ويمكن أن نقوم على تجميعها وتطويرها جميعا بحيث تؤدى الغرض الجديد الذى نضعه نصب أعيننا .. أى أنه لا ينقصنا فى هذا الصدد الا تحديد الفلسفة والهدف والمنهج ثم العمل الواعى المتقن ، على نحو متواصل .

ان ذلك يجعلنا ننظر الى انشاء مثل هذه القناة كقضية أمن قومى من الدرجة الأولى ، يجب أن تحظى بالأولوية الفورية

المطلقة ، ولأنه سيكون علينا وعلى أطفالنا فى نهاية المطاف مواجهة معضلة العيش مع اجيال من المؤهلين بالتقنيات الحديثة ، والذين يتعاملون معنا مستندين الى خدماتها ، ولأن القضية لن تكون قضية اختيار فيما يخص الكيانات البشرية ، فهذه المستحدثات من نفس « نوع » الأسلحة الذكية التى حسمت حرب الخليج حتى قبل أن تبدأ ، ومن نوع محطات الأقمار الصناعية التى تحط علينا فى بيوتنا أردنا أم لم نرد ، اننا ضمن العالم على أبواب عصر جديد تقوم ثقافته على أسس كونية وهموم انسانية مشتركة والصراعات الحضارية المعاصرة تلعب فتوحات التقنية المتقدمة دورا هاما فى تقرير نتائجها النهائية .

تبقى مجموعة من النقاط التى يصعب تجاوزها هنا وان كنت سأمر عليها سريعا لاعتبارات المساحة .

لقد حرصت على الاستهلال بالحديث عن الفنون الجميلة للتأكيد على أن الدعوة للقناة الجديدة ليست دعوة الى تربية دراويش تكنولوجيا أو تبسيط علوم ، لأن الهدف هو تربية بشر أسوياء ، بشر يتحلون بالتكامل المعرفى والرؤى الانسانية الشاملة الصحيحة ، والاهتمام بالثقافة العلمية فى هذا الاطار ليس بديلا عن الثقافة الانسانية وانما سعى للتكامل المعرفى ، فبحكم تجربتى أعرف ما للأدب والفن من قدرة على تنمية القدرات الابداعية ، وكل النظم التعليمية الراقية تحرص على أن

يدرس كل الطلاب العلوم الانسانية والأدب والفن ، ولكن ليس كل أدب وفن فكثير مما هو شائع لدينا فى هذا الباب مسجون فى قطعيات وقبليات وسلفيات ؛ تقتل كل قدرة له على الحث الابداعى .

ان هناك ألف سبب وسبب يقف وراء النتاج الابداعى لمجتمع من المجتمعات ، وألف عائق وعائق يقف فى طريق أن تؤدى هذه المؤسسة أو تلك ، من المؤسسات المنوط بها حث الابداع واستيعابه ، أن تؤدى وظيفتها لكن أهم العقبات أن يشيع تصور أنها مؤسسات للصفوة لا تتصل بما يجرى فى المجتمع وفى عقول الناس حولها ، وفى عصر الاتصال صار موجودا ذلك الطريق الملوكى ، الذى لايمكن أن يقارن به دور بيت أو مدرسة أو جامعة للتأثير فى طريقة تفكير الناس ، وفى اعدادهم ليكونوا رافدا للطاقة الابداعية للمجتمع .

تبقى الاشارة الأخيرة وهى أن القضية فى هذه الدراسة ليست فقط كيف تساعد مثل هذه القناة على صنع المثقف المتفتح القادر على رؤية ما لا يعتقد فيه ، وعلى الحوار والتطور واستيعاب ما يحيط به من حقائق ، وذلك بدلا من تعليم التلقين والحفظ والاملاء والترديد ، الذى يرسخ من صنع المتعصبين ذوى الأفق المحدود ، الذين يخاصمون روح التغير والابداع .

المؤلف فى سطور

محمد فتحى عبد الفتاح

١٩٤٤/٩/٢٧

ـ انهى دراسته التانوية متخصصا فى علم الحياة ٠

ـ تخرج فى كلية الهندسة جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٧ ، ولم ينقطع من يومها عن الدرس الأكاديمى فى مجالات الصحافة والنقد الفني والهندسة والعلوم والدراسات الاسلامية وعلم النفس والفلسفة واللغات ٠

الجوائز الحائز عليها :

* جائزة القصة القصيرة لجامعة الاسكندرية عام ١٩٦٥ ٠

* جائز أكاديمية البحث العلمى لتبسيط العلوم عام١٩٩٥ ٠

* الجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة « أكتوبر ذاكرة متجددة » التى نظمتها القوات المسلحة المصرية عام ١٩٩٧ ٠

* جائزة أكاديمية البحث العلمى للثقافة العلمية عام ١٩٩٨ ٠

النشـــر :

ـ بدأ النشر عـام ١٩٦٥ ونشرت كتاباتـه فى مجـلات : روزاليوسف ، صباح الخير ، العربى ، الدوحة ، الكويت ، الهلال ، الشموع ، الانسان والتطور ، المسرح ، ابداع · بالاضافة الى عدد من المجلات الأسبوعية والجرائد العربية ·

ـ نشر ما يزيد على (٨٠٠) قصـة قصـيرة ، ودراسـة صحفية تنتمى لباب الثقافـة العلميـة ، كما أذيعت بعض كتاباتـه ·

ـ رئيس تحرير « انسان ٢٠٠٠ » ·

صـــدر لـه :

* خطـاب مفتوح الى : (دراسـة) ١٩٦٥ ·
* يا أولاد حارتنـا توت : (حكاية) ١٩٦٦ ·
* ثقافتنا وخدعـة الأكاديميـة : (حواريـة عن الثقافـة العلميـة) ١٩٨٤ ·
* هل يحدد لك العلم ساعات السعد والنحس ؟ (دراسات ثقافية علمية) ١٩٨٤ ·
* سينما العصر والانسان : (دراسات سينمائية) ـ كتـاب الهلال ـ أكتوبر ١٩٩١ ·
* أنت عبقرى ولكن !! : (دراسات ثقافية علمية) ١٩٩٣ ·
* طفل بالتكنولوجيا حسب الطلب : (دراسـات ثقافيـة علميـة) ١٩٩٤ ·

* أهم الاكتشافات والأحداث العلمية (١٩٩٥ م) : (دراسات ثقافية علمية) ١٩٩٦ .

* الكمبيوتر مفكرا وخبيرا : (دراسات ثقافية علمية) ١٩٩٦ .

* أهم الاكتشافات والأحداث العلمية (١٩٦٦ م) : (دراسات ثقافية علمية) ١٩٩٧ .

* كتكوت فى سفينة الفضاء : (حكاية للأطفال) ١٩٩٧ .

* مدينة ملاهى فى الفضاء : (حكاية للأطفال) ١٩٩٧ .

* أسماك الفضاء العجيبة : (حكاية للأطفال) ١٩٩٧ .

* شكة فى ابهامه ـ رائحة الحياة : (مجموعة قصص قصيرة) ١٩٩٧ .

* القلب البديل الخرافة والأسطورة (دراسات ثقافية علمية) ١٩٩٧ .

* أهم الاكتشافات والأحداث العلمية ـ (٣) ج ١ ـ ١٩٩٨ .

* أهم الاكتشافات والأحداث العلمية ـ (٣) ج ٢ ـ ١٩٩٨ .

الفهـــرس

صدر من هذه السلسلة :

١	ـ الكومبيوتر	تاليف د. عبد اللطيف ابو السعود
٢	ـ النشرة الجويـة	تاليف د. محمد جمال الدين الفندي
٣	ـ القمـــامة	تاليف د. مختــار الحلوجي
٤	ـ الطاقة الشمسية	تأليف د. ابراهيم صــقر
٥	ـ العلم والتكنولوجيا	تاليف د. محمد كامل محمود
٦	ـ لعنـة التـلوث	تأليف م. ســعد شــعبان
٧	ـ العلاج بالنباتات الطبية	تأليف د. جميــلة واصــل
٨	ـ الكيمياء والطاقة البديلة	تأليف د. محمد نبهان سويلم
٩	ـ النهـــــر	تأليف د. محمد فتحي عوض الله
١٠	ـ من الكمبيوتـر الى السوبر كمبيوتر	تأليف د. عبد اللطيف أبو السعود
١١	ـ قصة الفلك والتنجيم	تأليف د. محمد جمال الدين الفندى
١٢	ـ تكنولوجيـا الليزر	تأليف د. عصام الدين خليل حسن
١٣	ـ الهـــرمون	تأليف د. سنيوت حليم دوس
١٤	ـ عودة مكوك الفضـاء	تأليف م. ســعد شــعبان
١٥	ـ معــالم الطـريق	تأليف م. سعد الدين الحنفى ابراهيم
١٦	ـ قصص من الخيال العلمى	تأليف د. رؤوف وصــفى
١٧	ـ برامج للكمبيوتر بلغــة البيزيــك	تأليف د. عبد اللطيف أبو السعود
١٨	ـ الرمال بيضاء وسوداء وموسيقية	تأليف د. محمد فتحى عوض الله
١٩	ـ القــوارب للهــواة	تأليف شــفيق مترى
٢٠	ـ الثقافة العلمية للجماهير	تأليف جرجس حلمى عازر
٢١	ـ اشــعة الليزر والحيــاة المعــاصرة	تأليف د. محمد زكى عويس

٢٢	ـ القطاع الخاص وزيادة الانتاج فى المرحلة القادمة	تأليف د. سعد الدين الحنفى
٢٣	ـ المريخ الكوكب الأحمر	تأليف د. منير أحمد محمود حمدى
٢٤	ـ قصــة الأوزون	تأليف د. زين العابدين متولى
٢٥	ـ قصص من الخيال العلمى ج ٢	تألبف رؤوف وصـفى
٢٦	ـ الـــذرة	تأليف م. ابراهيم على العيسوى
٢٧	ـ قصــة الرياضــة	تأليف عـلى بركـه
٢٨	ـ الملوثات العضــوية	تأليف محمد كامل محمود
٢٩	ـ ألوان من الطاقــة	تأليف عبد اللطيف ابو السعود
٣٠	ـ صــور من الكون	تأليف زين العابدين متولى
٣١	ـ الحاسب الالكترونى	تأليف محمد نبهـان سـويلم
٣٢	ـ النيــل	تأليف محمد جمال الدين الفندى
٣٣	ـ الحرب الكيماوية ج ١	تأليف دكتور أحمد مدحت اسلام د. عبد الفتـاح محسن بدوى د. محمد عبد الرازق الزرقا
٣٤	ـ الحرب الكيماوية ج ٢	تأليف دكتور أحمد مدحت اسلام د. عبد الفتـاح محسن بدوى د. محمد عبد الرازق الزرقا
٣٥	ـ البصــر والبصـيرة	تأليف طلعت حلمى عـازر
٣٦	ـ الســـلامة فى تـداول الكيماويات	تأليف د. سمير رجب سليم
٣٧	ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ١	د. طلعت الأعـوج
٣٨	ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ٢	د. طلعت الأعـوج
٣٩	ـ التلوث المـائى ج ١	د. طلعت الأعـوج
٤٠	ـ التلوث المـائى ج ٢	د. طلعت الأعـوج

٤١	ـ نعيش لنأكل أم نأكل لنعيش	د. محمد ممتاز الجندى
٤٢	ـ أنت والـدواء ط ١ ، ١٩٩٤ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٤٣	ـ اطلالة على الكون	د. زين العابدين متولى
٤٤	ـ من العطاء العلمى للاسلام	د. محمد جمال الدين الفندى
٤٥	ـ مسائل بيئية	تأليف رجب سعد السيد
٤٦	ـ البث الاذاعى والتليفزيونى المباشر ج ١	جلال عبد الفتاح
٤٧	ـ البث الاذاعى والتليفزيونى المباشر ج ٢	جلال عبد الفتاح
٤٨	ـ صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ١	تأليف محمود الجزار
٤٩	ـ صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ٢	تأليف محمود الجزار
٥٠	ـ جيولوجيا المحاجر	جيولوجى/ نور الدين زكى محمد
٥١	ـ الاستشعار عن بعد ج ١	د. سراج الدين محمد
٥٢	ـ الاستشعار عن بعد ج ٢	د. سراج الدين محمد
٥٣	ـ الردع النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
٥٤	ـ البترول والحضارة	د. توفيق محمد قاسم
٥٥	ـ حضارات أخرى فى الكون	جلال عبد الفتاح
٥٦	ـ دليلك الى التفوق فى الثانوية	سامية فخرى
٥٧	ـ التلوث مشكلة اليوم والغد	د. توفيق محمد قاسم
٥٨	ـ انهيار المبانى ط ١ ١٩٩٥ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	م. جرجس حلمى عازر
٥٩	ـ الوقت والتوقيت ج ١	عبد السميع سالم الهوارى
٦٠	ـ الوقت والتوقيت ج ٢	عبد السميع سالم الهوارى

٦١	ـ الجيولوجيا والكائنـات الحيـــة	د٠ دولت عبد الرحيم
٦٢	ـ أسلحة الدمار الشـامل ج ١	د٠ جمال الدين محمد موسى
٦٣	ـ أسلحة الدمار الشـامل ج ٢	د٠ جمال الدين محمد موسى
٦٤	ـ النقل الجـوى فى مصر ج ١	د٠ سراج الدين محمـد
٦٥	ـ النقل الجـوى فى مصر ج ٢	د٠ سراج الدين محمـد
٦٦	ـ قراءة فى مستقبل العالم	تأليف : كـلايف رايش
٦٧	ـ غدا القرن ٢١٠٠٠ ؟ ط١، ١٩٩٥ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	رجب سـعد السيد
٦٨	ـ الشـتاء النووى ج ١	د٠ جمال الدين محمد موسى
٦٩	ـ الشـتاء النووى ج ٢	د٠ جمال الدين محمد موسى
٧٠	ـ تاريخ الفلك عند العرب	د٠ محمـد امام ابراهيم
٧١	ـ رحلة فى الكون والحياة ج ١ ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ط ٢ ، ١٩٩٨	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٧٢	ـ رحلة فى الكون والحياة ج ٢ ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ط ٢ ، ١٩٩٨	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٧٣	ـ الصحـة المهنيـة ج ١	د٠ سـمير رجب سليم
٧٤	ـ الصحـة المهنيـة ج ٢	د٠ سـمير رجب سليم
٧٥	ـ عـالم الحشيش ج ١	د٠ جمال الدين محمد موسى
٧٦	ـ عالم الحشيش ج ٢	د٠ جمال الدين محمد موسى
٧٧	ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية لعام ١٩٩٥ م	محمـد فتحـى
٧٨	ـ النقل الجـوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ١	د٠ سراج الدين محمد

٧٩	ـ النقل الجوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ٢	د٠ سراج الدين محمد
٨٠	ـ رحلات علمية معاصرة	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٨١	ـ الكمبيوتر خبيرا ومفكرا	محمد فتحى
٨٢	ـ العلماء ثائرون	د٠ جمال الدين محمد موسى
٨٣	ـ الحرب النووية القادمة	د٠ جمال الدين محمد موسى
٨٤	ـ العلم ومستقبل الانسان	د٠ جمال الدين محمد موسى
٨٥	ـ الثورة الخضراء ٠٠ أمل مصر	م٠ جرجس حلمى عازر
٨٦	ـ عالم الأفلاك	د٠ امام ابراهيم أحمد
٨٧	ـ صناع الحضارة العلمية فى الاسلام ج ١	د٠ أحمد محمد عوف
٨٨	ـ صناع الحضارة العلمية فى الاسلام ج ٢	د٠ احمد محمد عوف
٨٩	ـ عبقرية الحضارة المصرية القديمة	د٠ أحمد محمد عوف
٩٠	ـ الفلك عند العرب والمسلمين ج ١	د٠ زين العابدين متولى
٩١	ـ الفلك عند العرب والمسلمين ج ٢	د٠ زين العابدين متولى
٩٢	ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية لعام ١٩٩٦	محمد فتحى
٩٣	ـ أسرار علم الجينات	م٠ طبى عبد الباسط الجمل
٩٤	ـ الانترنت	د٠ عبد اللطيف أبو السعود
٩٥	ـ موسوعة الأعشاب الطبية	صيدلى/ أحمد محمد عوف

٩٦ ــ البلاستك وتأثيراته البيئية والصحية — د. أحمد مجدى حسين مطاوع

٩٧ ــ (موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ــ الجزء الأول) أسرار الأرض — ترجمة : هاشم أحمد محمد

٩٨ ــ القلب البديل (الخرافة والاسطورة) — محمد فتحى

٩٩ ــ (موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ــ الجزء الثانى) أسرار جسم الانسان — ترجمة : هاشم أحمد محمد

١٠٠ ــ سيمفونية العلم — د. عفاف على ندا

١٠١ ــ سكان الكواكب — د. أمام ابراهيم أحمد

١٠٢ ــ السمنة وعلاجها ج ١ — د. فتحى سيد نصر

١٠٣ ــ السمنة وعلاجها ج ٢ — د. فتحى سيد نصر

١٠٤ ــ التلوث البيئى والهندسة الوراثية — د. على محمد على عبد الله

١٠٥ ــ التلوث البيئى وسبل مواجهته — د. محمد نبهان سويلم

١٠٦ ــ (موسوعه اسئله واجوبة من كنوز المعرفة الجزء الثالث) أسرار جسم الحيوان — ترجمة هاشم أحمد محمد

١٠٧ ــ حكاية الاستنساخ — م. عبد الباسط الجمل

١٠٨ ــ التلوث الكهرومغناطيسى — د. عبد المقصود حجو

١٠٩ ــ تغير المناخ ومستقبل الأرض — د. محمد أحمد الشهاوى

١١٠ ـ الانسان والطاقة ج ١	زكريا أحمد البرادعى
١١١ ـ الانسان والطاقة ج ٢	زكريا أحمد البرادعى
١١٢ ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية (٣) ج ١	محمـد فتحـى
١١٣ ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية (٣) ج ٢	محمـد فتحـى
١١٤ ـ منظومـة الحيـاة	صيدلى/ أحمد محمد عوف
١١٥ ـ صـيد البحر وطعامه	رجب سـعد السيد
١١٦ ـ مواقع النجوم ج ١	مهندس/سـعد شعبان
١١٧ ـ مواقع النجوم ج ٢	مهندس/ سـعد شعبان
١١٨ ـ (موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الرابع) عالم الفنون	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١١٩ ـ موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الخامس مغـامرات مدهشـة	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١٢٠ ـ سر النهوض والتقدم (لماذا لا يبدع المصريون)	محمد فتحى

رقم الايداع ١٦٣٦٨/١٩٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 6012 — 1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

كان بين آخر ما خطه يراع الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين عجالة بعنوان «فزورة التاريخ». وكانت فزورة بهاء. «منذ صارت القراءة أحد همومي، وأنا أسأل هذا السؤال. مــا الذى يجعل شعباً ما ينهض ويتقدم ؟ وما الذى يجعل شعباً ما يكون متقدماً وناهضاً يضمحل ويتقهقر ؟»

وكان بين ما جاء فى عجالة بهاء الدين: «من حق الكاتب أن يطرق باله سؤال ما ويحارى معه ولا يجد له رداً وتفسيراً: فيطرح هذا السؤال علىّ القارئ حتى إذا كان لا يفعل إلا أنه مشاركه فى حيرته فهذا أمرٌ مفيد، يشحذ الأفكار، وقد يخف لنجدته كاتب أو مفكرا آخر».

كنت مهموماً بسؤال الأستاذ بهاء، وكنت قد قضيت سنوات طوال فى البحث عن اجابة له، فحاولت أن أقدم هذه الاجابة فى عدد من المنابر الفكرية، الأمر الذى حظى بحماسة وتشجيع الاستاذ بهاء. وكانت الحصيلة هذا الكتاب عن «سر النهوض والتقدم» أو كيف تتاح الفرصة للمصريين حتى يبدعوا .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب